نساء في عُنق الزجاجة

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: نساء في عُنق الزجاجة
اسم المؤلف: غادة علي المغربي
التصنيف: مجموعة قصصية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: 240
سنة الإصدر: 2024
رقم الإيداع: 29112 / 2024
الترقيم الدولي: 7 – 058 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: د.هبة ماردين
تصميم غلاف: هبة عماد
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

نساء في عُنق الزجاجة

مجموعة قصصية

غادة علي المغربي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حامدة

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

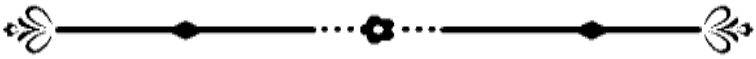

إهداء

إلى الظروف والأحداث التي زادت من خبرتنا في الحياة وعلّمتنا رغم قسوتها، إلى كل الطرق الشاقة التي خُضناها رغمًا عنا، إلى كل صعب نال منا ونلنا منه القوة والصبر، إلى كل حكمة اكتسبناها بعد ألم وكل يأس تحديناه من أجل الأمل، إلى كل سلام زُرعَ بداخلنا بعد تشتت.. وكل فتور تخطيناه من أجل الطموح، لكل العثرات والانهزامات!

غادة علي المغربي

****

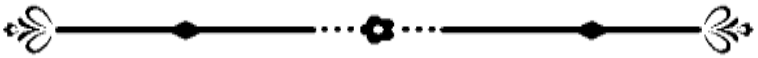

المقدمة

يقول جون ستيوارت ميل: "مشقة الوعي تكمن في قدرته على كشف القناعات الخطأ والتحيزات العقلية التي قد تكون لدينا، إنّه يحتاج إلى شجاعة لمواجهة الحقائق وتغيير وجهات النظر"

وهذه ضريبة الوعي الكامن داخل مشقات الحياة التي تأتيك بغتة دون الاستعداد لها، لكنها قادرة على تغييرك التغيير الجذريّ والكليّ، ليس على الإنسان الاستعداد الدائم للأحداث، ولكن عليه أن يكون في غاية الاستعداد لطرق الوعي والاستنتاج الصادرة عن الأحداث وما بعدها..

إن من أعظم أخطاء العقل البشري هو إصراره على محطات من الفهم المترسخ منذ زمن دون تغييره وتطويره والتعمق في فهمه ودراسته من جديد. وكأنّ عارًا عليه أن يفتح مفاهيم قديمة قد حفظها واقتنع بها أو أمليت عليه دون نقاش..

ومن الجدير بالذكر أيضًا أنّ عادات وتقاليد المجتمع تُحتم علينا قواعد نتماشى معها دون أي اعتراض أو تحليل لها ومن يعترض أو يصدر منه أي قرار بالتوعية منها واتهامها بالخطأ ينظر له الجميع نظرة شك وريبة عالية، المجتمع يرفض تغيير القوانين والمفاهيم السائدة منذ زمنٍ طويلٍ حتى أصبحت يعلوها الغبار، وماتت تحتها كثير من القيم السامية والمبادئ التي لا شك في سلمها وسلامها..

منهم مَنْ صنعَ معتقدات وأقوالاً ومفاهيم سعت في بناء أجيال من المعرفة والوعي وعلى الجانب الآخر هناك من ترك مثلها يسقط أي فرصة للثقافة والإدراك..

والخطأ يكمن في التوارث والاعتياد والاستمرار على خطى السير القديم، حتى أصبحنا نترنح بين أخطاء في العلاقات الاجتماعية والأسرية والعاطفية، وحتى في علاقة المرء بنفسه..

نَظلِم ونُظلَم تحت شعار الاعتياد والمعتاد..

وتمر الحياة ويولد جيل بعد جيل تنجرف معرفته ووعيه إلى الحضيض دون الشعور، يتمسك بالوهم والخيال ويترك أي سبيل للنور المتمثل في المعرفة التي ترتقي به، وحتى إن فكر في تجربة ما يمليه عليه الوعي، ظلّ خائفًا من أشباح الجهلاء التي تتلصص عليه بأعيُنها وألسنتها الملتهبة الحارقة لنفسيته، وهكذا ما بين جيل رافض لكل سُبل الوعي وما بين جيل يريدها بقوة، لكنّه خائف وما بين جيل أرداها وعمل بها وتحدث عنها ويحارب أعداء الوعي كل يوم..

والأهم هي الفئة التي لا تعلم شيئًا سوى التفاهات وسفاسف الأمور ولا تسعى غير لذلك حتى إن اصطُدمت بتجارب الحياة الواقعية القاسية تصيبهم نوبات من الانهيار والتيه..

أحيانًا يولد الوعي من رحم التجارب الذاتية القاسية، لكن ولأنّ لكل شيء ضريبة، يفقد المرء قدرته النفسية مقابل ما اكتسبه من الوعي..

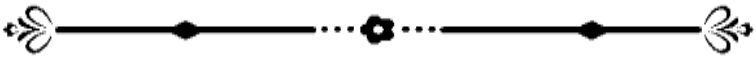

ولذلك مؤسفة هي لحظات الإدراك بعد وهم المعتقدات..

والذكي هو من يصنع وعيًا لنفسه قبل الخوض في التجارب، فيوفر على نفسه خوضها أو حتى يعلم كيف يُبحِر في خوضها بأقل الخسائر النفسية الممكنة..

وتلك هي فائدة الوعي في الحياة..

والحقيقة هي أنّ الوعي بكل أنواعه مؤلم، لكنّ البصيرة التي تكتسبها بعد الألم تستحق!

****

القصة الأولى: «تسبيح»

"الانتظار أهون من سوء الاختيار"

تشبيه العمر بالقطار السريع الذي لا يتوقف مهما حاولنا إيقافه، مشاعر غريبة تختلج صدور الكثير، لكلّ منا شعورٌ مختلفٌ عن الآخر حيال هذا الأمر، لكن الأكثر عنفًا هو الشعور الذي يَبُثه المجتمع لكل فتاة لم تختر شريك الحياة بعد!

فتصبح كلّ فتاة في سن الزواج أو حتى منذ نشأتها لا تفكر إلا في كيف تصبح عروسًا ترتدي الفستان الأبيض المزركش فقط، تفكر كيف من الممكن أن ترتدي خاتمًا في إصبعها يلمع يتلألأ وتتباهى به!

تم زرع هذا المبدأ والمفهوم في عقل معظم الفتيات منذ بداية موسم بتر عقولهن المبكر، دون أدنى تفكير تجاه كيفية اختيار الشريك وما هي أساسيات اختياره، وتتوالى العقبات والأخطاء التي بدورها قادرة على تحطيم الفتاة وسلب كل سبل الأمان منها...

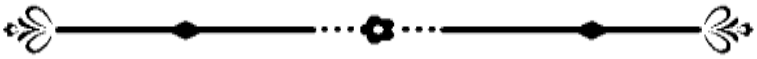

«الخامس عشر من يناير_٢٠١٩»

•أصوات الموسيقى الصاخبة تملأ شارعنا، وأضواء مصابيح الزينة الخاصة بالأفراح تنعكس على زجاج نافذة غرفتي لتجعل الغرفة مضاءة بالألوان الممزوجة، الجو بارد جدًا، والأمطار تتساقط منذ أمس بلا انقطاع لتزيد من حدة الوضع الكئيب داخل روحي، والمتوازي مع تأنيب أهلي والمُصاحب لنظرات شفقة وتحسر، ولا بأس بقليل من الجمل المستفزة الطاعنة لكرامتي..

اليوم هو حفل خطبة جارتي وصديقتي، صديقة الطفولة ورفيقة الثلاثة والثلاثين عامًا الماضية من عمري، وكذلك الأخيرة من رفيقاتي في العزوبة، كما أنّها الوحيدة التي صمدت معي على مبادئ عقلانية، وردات الفعل عليها كادت تفتك بنا أياماً ولياليَ كتيارات من الأمواج العاتية تهاجم كلانا دون توقف!

صمدت كثيرًا، لكنّها في النهاية عجزت عن التحمل والتجاهل، واستسلمت لمبادئ وقوانين فُرضت علينا دون الحق في التدخل أو حتى في التفاوض، وكأنّنا نتحدث إلى آذان صماء، وها أنا بقيت وحدي صامدة لا أقبل ولا أتقبل ولا أعلم كيفية الخضوع، تعاندني مبادئي وأفكاري..

•ارتديت ملابس ثقيلة لتتماشى مع الأجواء، وأستمد منها دفئًا غاب عني وكأنّني أحتمي بها..

خرجت من غرفتي لتقابلني عبارات أمي الحارقة قائلة بنبرة حزينة:

_ آه يا حسرة عليك، كل يوم تحضري خطوبة هنا وفرح هناك لبنات أصغر منك، ده غير صحابك اللي اتجوزوا من سنين وبقى معاهم عيل واتنين وأنتِ على حالك قاعدة جنبي، وأهو آخرهم منار صاحبتك أخيرًا عقلت وفهمت أن القطر اللي بيفوت مبيرجعش.

ابتلعت غصة حضرت سريعة في قلبي – كعادتها - لكنّها ليست الأولى ولا الأخيرة، وتجاهلت ما قد قيل لي لتوّ، واستأذنتها للخروج ذاهبة لمنزل منار صديقتي لأبارك لها خطبتها وأشاركها يومًا قد رسمناه معًا من سنين لكنّه آتى على غير ما توقعنا!

•في بيت العروس منار صديقتي كانت الأجواء مبهجة ما بين ترتيب المكان المزين والمجهز "الكوشة" لاستقبال العريس وأهله، وما بين غناء ورقص الفتيات وتوافد المدعوين.

ولجت من باب غرفة منار فرأيتها واقفة، ملتفة حولها أخواتها وبعض أقاربها لمساعدتها في إكمال زينتها عندما رأتني في المرآة التفتت إليّ في لهفة، فاحتضنتها في حبٍّ شديدٍ وباركت لها على خطبتها قائلة بابتسامة:

_مبارك يا منار، مبارك يا حبيبة القلب، ربنا يتم لك على خير ويجعله الزوج الصالح ليكِ.

نظرت لي منار بابتسامة تُخفي بها مشاعر كثيرة أعرفها جيدًا..

وقالت بهدوء:

_الله يبارك في عمرك ويبارك في صحبتنا اللي قوتني أيام كتير..

أنهت منار جملتها والتفتت للفتيات وقالت باعتذار:

_معلش يا بنات ممكن تسيبوني مع تسبيح شوية.

خرجت الفتيات سريعًا واحدة تلو الأخرى..

قلت لها في ود وأسف بالغ:

_آسفة بجد إني مجتش من أول اليوم، كان نفسي حقيقي أشاركك كل تفصيلة، بس أكيد أنتِ فاهمة هكون عُرضة لمواقف محرجة كتير.

جلست بجواري ثمّ قالت:

_متقوليش كده يا تسبيح بجد أنا عارفة اللي عندك ومقدرة جدًا الوضع، أنتِ معايا بقلبك وبدعمك في كل الأوقات.

ثمّ صمتت لثوانٍ وعلى وجهها ملامح حيرة وقلق وقالت:

_تفتكري اللي عملته صح يا تسبيح أنا قلقانة جدًا خايفة أكون بضيع نفسي، خايفة أدخل مرحلة أبشع من اللي مريت بها السنين اللي فاتت، عقلي رافض فكرة أني أطلع من السوء لأسوأ!

بعد أن تملكتني الحيرة في الرد قلت مبتسمة:

_منار أهدي ومتقلقيش أنا فاهمة أحاسيسك كويس بس لازم تفهمي أن ده نصيب وقدر وأنتِ صبرتي كتير وتعبتي أكتر قصاد الصبر ده واستحملتي مواجهات وصراعات، وأنا أكتر حد فاهم ده لأني مجربة وخضت معاكي التجربة بكل متاعبها..

بس أنا على ثقة أن بعد كل التعب ده نصيبك هيكون خير ليكِ، هيكون فيه العوض عن كل اللي مريتي بيه.

أنهيت كلامي أتفحص لأي إشارات اطمئنان في عينيها..

ظل الصمت سائدًا بيننا لثوانٍ، ثمّ انتبهت على صوتها وهي تقول:

_ أزاي يا تسبيح ده حد أنا معرفش عنه أي حاجة، مجرد تفاصيل بسيطة عن حياته وكل حاجة فيه مبهمة بالنسبالي، مقعدتش معاه غير مرتين بس ملحقتش فيهم أفهم أي حاجة وبسرعة كل اللي حوليا أخدوا القرار بالموافقة من غير أي اهتمام لرأيي، والعذر أيه أن مفيش وقت وهو جاي إجازة لمدة محددة ولازم كل شيء يتم بسرعة.

تنفست الصعداء وقلت:

_متقلقيش يا منار لسه قدامك فرصة ووقت تعرفيه أكتر ووقتها هتطمني أكتر وبالك هيرتاح.

ابتسمت في سخرية مريرة وقالت:

_يعني ده هيفرق! تفتكري حتى لو طلع مش مناسب ليا وحاولت أسيبه أهلي هيوافقوا؟

خلاص يا تسبيح كل فرص المواجهة والاعتراض بيني وبين أهلي خلصت، وبعدين ٤ شهور أيه اللي هلحق فيهم أتعرف على رجل وأفهمه وأفهم طباعه علشان أقدر بعد كدة أتجوزه وأسافر معاه وأعيش لوحدي أواجه حياة معرفش مصيرها أيه!

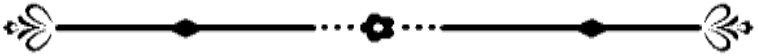

ثم أكملت في يأس:

_حاسة بالغربة من قبل ما أطلع من بيتي.. غربة القرار اللي اتفرض عليا من أهلي وغربة الاختيار اللي مخترتهوش ومش عارفة مصيري معه هيكون أيه وغربة سفري مع راجل مش هلحق حتى أعرف إن كان مناسب ليا ولا لأ!

•كانت الحيرة هي الشعور الطاغي عليّ ما بين واقعية ما تقوله منار وخوفي الشديد عليها وما بين شعور بالعجز حيال مساعدتها وما بين إحساسي بالمسؤولية تجاه بث الطمأنينة والأمان في قلبها...

صمتنا لثوانٍ أعتقد كان التفكير في مصيرها ما يجول في عقلها، أما أنا كان تفكيري كله منحصرًا في السنوات الأخيرة التي خضناها نواجه مجتمعًا يرفض العنوسة ويبغض الفتاة العزباء بكل ما تحمله من أسباب لذلك..

أفقت على صوتها المنكسر من جديد وقد ظهرت سحابة حزن في عينها فقالت مؤنبة:

_عارفة إنهم صبروا كتير وكان نفسهم يفرحوا بيا من زمان بس أنتِ عارفة برضو أنه غصب عني حاولت كتير أقتنع بأي حد من اللي كانوا بيتقدمولي لكن كلهم مش مناسبين، أعمل أيه لو كان قدري مش مناسب لاحتياجاتي ولتفكيري ولوضعي ولإحساسي.

أعمل أيه يا تسبيح لو كانت كل الفرص مش على مقاس قلبي وعقلي.. أعمل أيه!

•كانت كلمات منار أحدَّ من نصل السكين على قلبي، لأنّني أعرف تلك الكلمات جيدًا، أعرف ما تخبئه من شعور، أعرف المذاق المُر لتلك الأسئلة كما أعرف جيدًا لوعة الأسئلة مجهولة الإجابة..

لكن لا أحد يعلم ما معنى أن ترفض قرارات مجتمعية فُرضت علينا دون نقاش، ومفاهيم ترسخت في العقول فسحقت كل من لا يخضع لها، لا أحد يعلم كيف لك أن تمشي في عكس التيار لا أحد يعلم كيف لك أن تتمرد عن القافلة المجتمعية وتشرد عن القطيع!

القطيع الذي أصابه عمى تام!

أن تعاتب مجتمع نظرته لا تتغير وعقله لا يفكر، أشبه بأن تصرخ في غرفة فارغة تمامًا فلا تسمع بها إلا صدى صوتك وصدى ألمك، ثم ينقلب الوضع ويعاتبك أنت إن قررت مخالفته. حتى وإن تماشيت مع قوانينه البلهاء وخضعت، ثمّ حدث ما حدث وأكلتك نيران أخطائه عادوا - من جديد - لعتابك..

في كل أحوالك أنت المخطئ أمامه، أنت العاصي والمجرم والجاني..

لأنّ ببساطة هو مجتمع يرى ما يريد أن يراه لا ما تحاول أنت إثباته وتوضيحه حتى وإن ظهرت أدلة براءتك، فعمى العقول أشد كارثة من عمى العيون!

لا نجاة من مجتمع ضعيف الإرادة أمام تغيير ما شنّتهُ علينا الأيام والأزمنة من قوانين واهية..

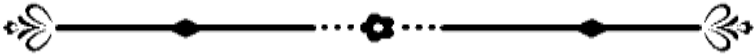

•رأيت نفسي أمام حديث منار لا أستطيع التخفيف لا أجد إجابة واحدة أقنع بها عقلها المشتت كذلك كنت مثلها أبحث عن إجابات منذ سنوات ولا أجد..

ما كان مني سوى بعض كلمات تعمل مثل أثر المسكن لقلبها لحين أن ينتهي هذا اليوم بسلام أو تصل بنفسها ليوم آخر تجد فيه شيئًا غاب كالطمأنينة أو الإجابة المفقودة..

سرعان ما تكونت دموع في عين منار تتسارع للسقوط من عينها معلنة عن ضعف وحيرة بعد أن طرحت أسئلة نبشت بها عن أحزان متراكمة على مر سنوات..

أسرعت في تهدئتها ممسكة بيدها بلطف:

_منار حبيبتي أهدي بجد مش هينفع كده أوعي تعيطي دلوقت أرجوكي أهدي..

ثمّ عانقتها عناقًا أُشدد به على قلبها من كل خوف يحاصره وقُلت:

_منار يا حبيبتي لازم تتماسكي، عاهدتك قوية في كل اللي فات عمري ما شوفتك ضعيفة كده..

ثانيًا لازم تفهمي أن دي أقدار الله ولازم ترضي بقدرك وتقولي الحمد لله، وأنا متأكدة أنك فاهمة ده كويس بس متوترة شوية..

قالت بضيق:

_مش قادرة يا تسبيح أنا خايفة وعندي إحساس بالعجز رهيب، فكرة أني صبرت كل ده علشان في الآخر برضو أخضع لأوامر معاكسة لفكري وعقلي وقلبي فكرة قاسية، كأني كل صبري السنين ده راح هباء، كأني ضيعت كل السنين دي على الفاضي علشان في الآخر برضو أوصل للي هربت منه كتير تحت تهور اختيار ومواصفات بعيدة كل البُعد عن احتياجاتي..

•كان الشعور بالذنب هو الطاغي على حديث منار، كونها تشعر أنها السبب في كل ما مرت به

خلال تلك السنين، شعور زرعه المجتمع داخلنا ليجعلنا نحن المذنبين..

قلت نازعة لذلك الشعور الموجع:

_مش بإيدينا يا منار لازم تفهمي ده، مكنش أبدًا اختيار، كان اختبار..

ربنا اختبرنا لما خلقنا بعقل وفكر واحتياجات معينة للأسف مش موجودة كتير أو حتى لو كانت موجودة مكنتش متاحة لينا..

لا أحنا كنا من البنات السطحية اللي كل همها تلبس دبلة وفستان وتبقى الاسم مخطوبة أو متجوزة وتعوض الفراغ العاطفي بوجود راجل.. بغض النظر عن الراجل ده وضعه وفكره وعقله ونضجه أيه..

ولا أحنا فضلنا على وضعنا اللي اتخلقنا بيه من نضج ووعي ولقينا الشخص المناسب لينا يشبنها ونشبهه..

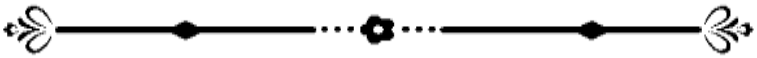

كل حاجة كانت معاكسة لإحساسنا وفكرنا واحتياجاتنا، بنتهاجم آه علشان كنا مختلفين.. منشبهش البنات العادية اللي طموحتها في اختيار الشريك مش موجودة!

كنا محتاجين حد ميبقاش مجرد دبلة وخطوبة وجوازة مجهول مصيرها..

كنا محتاجين حد نلاقي نفسنا الغايبة فيه، نلاقي عمرنا معاه ونكمل نضجنا ووعينا وثقافتنا بعقله وحكمته.. كنا محتاجين راجل يفهمنا ونفهمه..

وعلشان مكناش بنرضى نتخطب لأي حد من اللي بيتقدموا لمجرد أننا عارفين أحنا عايزين أيه ومحددينه كويس كنا بنتهاجم من القريب قبل الغريب لأن محدش فهمنا..

لأننا للأسف مش زي أي بنت عادية..

البنات العادية اللي كل طموحها يندرج تحت اختيار شخص وسيم أو غني أو غيره، طموحات عمرها ما شغلتنا رغم أنها كانت متاحة لينا كتير..

ولأنها فعلاً كانت متاحة وكتير فبرضو اتهاجمنا واتقالنا "اللي بيتبطر على النعمة بتزول من وشه"..

صمت لثوانٍ أتدارك فيهم أنفاسي التي بدأت تضيق بسبب ما تذكرته من أيام وكلمات مريرة..

وأكملت بصوت متحشرج:

_كانوا شايفينها فرص متتعوضش ونعمة فعلاً وأحنا مش مقدرينها، بس أحنا اللي محدش قدر احتياجتنا واختلافنا.. محدش قدر أننا ولا مرة شغلنا الشكل والهيئة والوضع المادي أو غيره من مميزات كتير بتجذب البنات..

محدش قدّر أن كل اللي كان ممكن يجذبنا في أي حد هو نضجه ووعيه وثقافته وحكمته ودينه وتعاملاته وشخصيته ومعرفته بأساسيات تكوين أسرة وواجباته كزوج وأب..

محدش فهم أبدًا أننا مكناش عايزين نتسرع ونبقى زي كل البنات اللي كانت كلها لهفة للخطوبة والزواج بدون أدنى تفكير في عقبات التسرع والتهور في الاختيار، بدون أدنى تفكير في هل إن الشخص اللي اختاروه مناسب ولا لأ! مناسب لوضعهم ولفكرهم واحتياجتهم، مناسب وملائم لشخصيتهم..

هيضيف ليهم ولا هيبقى النقص الوحيد اللي في حياتهم..

وحتى لو اللي اختاروهم شبههم في سطحية الشخصية والتفاهم والعقل..

فهيبقى تمام أوي اتنين شبهه بعض وجايز يكملوا بالتشابه ده..

إنما احنا ملقناش اللي يكملنا، ولا كان سهل علينا نتنازل ونرضى باللي عمره ما هيناسبنا..

مكنش ذنبنا أن عقلنا ونُضجنا سبق سننا، فبقينا مُدركين لحاجات كتير غابت عن اللي في عُمرنا.. بقينا فاهمين وواعين لأهدافنا واحتياجاتنا.. مش ذنبنا إننا بوعينا ونُضجنا تخطينا أمور كانت هتبقى من أكبر أخطاء حياتنا،

مش ذنبنا إننا كنا عارفين عقوبة التهور والتسرع في أمر مصيري زي ده هتترتب عليه حياتنا وآخرتنا.. مش ذنبنا إننا كنا بنفكر وبنختار بحرص علشان عايزين نبني بيت على النشأة الدينية الصح، نختار حد همه الدين ياخد بإيدينا للجنة ويساعدنا على طاعة الله مش حد يبعدنا ويلهينا زيه بالدينا..

كنا بنفكر في بيت دافئ واعي مثقف ومتفاهم مش مجرد جوازة والسلام ونبقى نماذج من آباء وأمهات كتير فشلوا في تربية أولادهم تربية سليمة، ولا إننا نبقى نموذج من زوج وزوجة غير مناسبين عقليًا واجتماعيًا والمشاكل بينهم لا حدود لها وتبقى الحياة كلها معقدة..

كنا شايفين حاجات كتير من المستقبل بتنبئنا نكون حريصين أوي ونختار بالعقل مش بالقلب ولا العواطف!

العالم عشوائي ومتلغبط مقدرش يتفهم ترتيب عقلنا ونظامه، وللأسف ده اللي تعبنا..

كنا مختلفين يا منار واختلفنا في صالحنا مش ضدنا..

المجتمع هو اللي ضدنا وضد وعي عمره ما هيتقدر!

ثمّ استكملت حديثي قائلة:

_فعلشان كده حابة أفكرك أنك كنتِ قوية في كل السنين دي وعملتي اللي عليكِ كتير أوي علشان متخضعيش لأمر تندمي عليه بعد كده.. وإن كل اللي حصلك خارج عن إرادتك سواء زمان أو حتى دلوقت..

خلي عندك ثقة في الله ويقين أنه ربنا اللي اختارلك الشخص ده بعد كل السنين دي مش هيضيعك..

ده مش اختيار أهلك، ده اختيار ربنا اللي عمره ما هيخذلك، حكمة ربنا بالغة قد لا نُدركها أبدًا،

وبعدين لي لأ ما جايز فعلاً يكون هو ده الشخص اللي فضلتي سنين تدوري عليه وأهو جالك لحد عندك بطريقة غير اللي كنتي متخيلاها..

فاصبري ومتستعجليش في الحُكم عليه، اللي حصل من أهلك ما هو إلا تخطيط من الله، سلمي أمورك لخطط ربنا..

وأخيرًا بقى لازم تفرحي كده وتتبسطي باليوم ده وتحاولي تفهمي خطيبك وتتفائلي إنه يطلع مناسب ليكِ، زي ما عملتي كل اللي عليكِ علشان متظلميش نفسك.. جه الوقت تعملي كل اللي عليكِ علشان تخوضي التجربة وتكوني قدها بثقتك في الله وبصبرك ووعيك ونُضجك..

قالت في محاولة منها للوصول للصبر:

_هحاول، هحاول أتمالك نفسي يا تسبيح.

قبل أن تكمل منار حديثها جاءت أصوات الألعاب النارية وأبواق السيارات العالية مُعلنة عن قدوم العريس وأهله...

فتسارعت في أن أهدئها وأُعيد ترتيب حجابها وإتمام ما تبقى معها للخروج لاستقباله.

•بعد الكثير من السلامات والتصوير بين المدعوين مع العريسين..

انزويت بمفردي وأنا أنظر لمنار وأدعو في داخلي بأن يتم الله فرحتها ويسر خاطرها بما تتمنى ويجعل قدرها موافقًا لرغباتها كلها..

أثناء ذلك وأنا في غمرة تفكيري.. جلست بجانبي جارتنا السيدة نوال وقالت بصوت بارد وبنظرات شفقة وشماتة:

_أزيك يا تسبيح، عقبال عوضك.

قُلت في لا مبالاة:

_الحمد لله، شكرًا يا طنط.

أردفت بنبرة باردة:

_مش ناوية تفرحينا قريب بقى، يا حبيبتي العمر مبقاش فيه، مش لو كُنتِ وافقتي على العريس اللي جبتهولك من سنتين كان زمانك متجوزة ومخلفة دلوقت وعندك أسرة وبيت..

•أحيانًا يفقد المرء النطق ويُصيبه عجز في الرد لعِظَم وقاحة ما يقال أمامه، ما من كلمات ستجدي نفعًا وقتها..

ماذا أقول إذًا، أقول إن ما جلبتِه لي من عريس كان غير مؤهل لحمل لقب زوج أو أب ولا يعرف مسؤولية تكوين أسرة ويجهل الكثير من تعاليم دينه، ولا يعلم عن الزواج سوى أنه قرار في مرحلة ما من العمر فقط، ولا يحمل أي إيجابيات من وجهه نظره ونظرك ونظر المجتمع كله سوى أنه يعمل ويعرف كيفية جلب المال..

أهذا كل شيء لتقييم شخص للدخول معه بعلاقة ترسم مستقبلي ومستقبل أولادي كله.

قد قطعت عهدًا على نفسي منذ زمن بألا أخوض في حوار كهذا مع أي شخص متدني الفكر.. مهما حاولت لتبرير موقفي أمامه سأكون حتمًا مخطئة..

في تلك المواقف أذكر نفسي بما قاله دكتور مصطفى محمود: "إنَّ المرء إذا زاد نضجه ووعيه، وكثُر حِلمه وعلمه، انطفأت فيه رغبة الجدال شيئًا فشيئًا، وبات أبعد عن الملاسنة والمماتنة، وأقرب إلى التجاهل والتغافل، وأيقن أنَّ وقته أغلى من أن يضيعه في جدلٍ بغير طائل، ومزاجه أولى من أن يكدِّره للانتصار في موقفٍ عابر"

مسكينة السيدة نوال مثلها مثل بقية المجتمع الذي يظن بأن الفتاة التي يتعدى عمرها الثلاثين ولم تتزوج على وشك الانتحار وتقطيع شرايين يدها من الحزن والبأس.. لا يعلمون بأن معظم تلك الفتيات قد اخترن ذلك بأنفسهن وبكامل عقلهن ووعيهن ولم يرغمهن على ذلك سوى تدني ما يُتاح أمامهن من فرص بشعة لهن وفي غاية الاستحسان للمجتمع الجاهل..

قد اخترن ذلك على معرفة بعواقب الاختيار وذلك القرار، وأنهن لا يرين الحزن والبأس إلا لتلك التي وقعت في فخ سوء الاختيار وتسرعت من أجل الفوز بلحظات عابرة يعقبها الكثير من الندم، تلك التي هربت من معاناة نظرة المجتمع ووقعت في الأدهى والأمر...

لكن أنا قلبي عزيز عليّ أعز من أن أرميه في ساحة حرب خاسرة يعتقدونها علاقة زواج ملاءمة!

وما كان مني غير الرد المعتاد لي في مثل تلك الأحاديث الباردة..

بابتسامة مصطنعة قُلت:

_قدر ونصيب يا طنط لعله خير أنا مرتاحة كده.

•وفي المعتاد أيضًا تُكمل التي أمامي حديثها لشق وجذب العتاب واللوم واقتناص لأي نظرة ندم في عيني ترضي بها نفسها، فلا تجد فتزيد من حدة كلامها.. آه أعرف تلك النفوس والمواقف مررت بالكثير منها حتى حفظتها وحفظت نيات أصحابها، بعد الكثير من الخبرات والتجارب والعلاقات الاجتماعية وذلك العمر، بدت لي الأمور واضحة كوضوح الشمس، أعرف متصنع الود وزائفه، أعرف صاحب الحب والاهتمام الحقيقي ومُدّعيه، أعرف النفس الطيبة من كلماتها الطيبة الرقيقة وفي كيفية توجيهها، وكذلك أعرف النفس الخبيثة التي ترغب في كسر خاطرك وهي تغلف ذلك جيدًا بادعاء النصيحة والحب، عرفت كيفية تصنيف من حولي، عرفت التلوين والتزييف كيف يكون!

هي كذلك اختبارات الحياة وابتلائها تعطيك من المعرفة والنضج والفطنة الكثير..

•وبعد أن حسمت السيدة نوال الحديث على أنه منافسة قوية لإثبات من فينا على حق وعزمت على الفوز بالضغط عليّ دون مراعاة مشاعري ومراعاة اختلاف الشخصيات والعقول، ظنًا منها بأن أصابعها الخمسة مثل بعض!

أكملت في تحدٍ ظاهر:

_ يا حبيبتي طبعًا نصيب مقولناش حاجة، بس برضو قعدتك كده مش لطيفة خالص والعمر بيجري مبيستناش لازم يكون ليكِ راجل تتسندي عليه ده حتى المثل بيقول: ضل راجل ولا ضل حيطة..

•في الحقيقة كنت أتظاهر باستماعي لها ولسان حالي يقول بكل رضا: "ضل الحيطة أفضل كتير من ضل الرجل اللي مش مناسب دين وعقل ونضج وفكر" وأنا أتماسك في عدم الرد عليها..

أتسلى بالسخرية على حديثها في داخلي، فالحقيقية إن بعض الآراء والأفكار لا يُجدي معها إلا السخرية سيكون من غير الواقعي أن نأخذها على محمل الجد...

وقبل أن تكمل جملتها الثانية لتطرح عليّ أفكارها المعقدة، جاء الخلاص لي من ذلك الحديث كنجاة على هيئة شخص..

أحسست بيد على كتفي من الخلف وصوت فتاة تنادي باسمي، فالتفت مسرعة لأجدها سلمى صديقة كانت مقربة جدًا لي أنا ومنار، لم أرها منذ زمن، فابتسمت غير مصدقة بأنها أمامي بعد كل تلك السنوات..

وقُمت أحتضنها في ترحاب وفرحة عارمة:

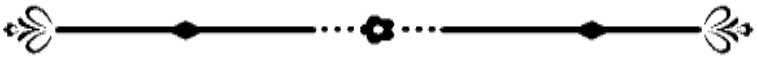

_سلمى حبيبتي مش مصدقة أنك قدامي.. عاملة إيه؟!

قالت بابتسامة عذبة:

_بخير الحمد لله يا تسبيح، أنتِ عاملة أيه وحشتيني أوي بجد.

قُلت متسائلة بعد أن طمأنتها على حالي:

_لا أوحش الله لكِ قلبًا ولا قبرًا.. أنا كمان بخير يا حبيبتي طمنيني عنك فينك كل السنين دي وأزاي عرفتي بخطوبة منار النهار ده؟!

ردت سلمى قائلة:

_من شهر كده لقيت صفحة على الفيسبوك باسم منار شوقي مصدقتش حقيقي أن أخيرًا عرفت أوصل لحد منكم، فكلمتها واتأكدت أنها منار صاحبة عمري وسنيني الحلوة، وبس بقى بعديها منار عزمتني على الخطوبة واتفقت أنا وهي أنها متقولكيش ونعملها مفاجأة ليكي..

قُلت بفرحة ثم أشرت بعيدًا:

_دي أحلى مفاجأة والله.. مبسوطة جدًا برؤيتك بجد بعد كل الغياب ده، تعالي نقعد بقى بعيد في هدوء وتحكيلي كده وتطمنيني عليكي ونسترجع مع بعض الأيام الجميلة..

ثم التفت للخلف وألقيت نظرة على السيدة نوال وقُلت وأنا أنهض مسرعة بابتسامة باردة:

_بعد إذنك يا طنط.

تاركة نيران الغل تأكل ما تبقى من حديثها دون أن تحصد ما تريده مني كإحساس بالخيبة..

جلست أنا وسلمى في شرفة منزل منار بعيد عن الضوضاء والموسيقى الصاخبة...

قالت سلمى مستذكرة أيام اختفائها عنا:

_بعد الثانوية نقلت أنا وأهلي في محافظة الفيوم عند أهل بابا وللأسف كل أرقام صحابي اتمسحت بسبب أن الموبايل اتسرق مني.. ولذلك انقطعت عن كل معارفي وصحابي وبدأت حياة جديدة شغلتني فيها الكُلية بعدين الجواز ومعرفتش أتواصل معاكم.. وأهو الحياة بأقدراها بترجعني ليكم من تاني الحمد لله..

قُلت مستفهمة:

_ولا يهمك يا حبيبتي أهم حاجة أنك بخير وعافية واطمنا عليكي.. احكيلي بقى دخلتي كلية إيه واتجوزتي أمتى؟!

قالت بضيق ظهر فجأة على ملامح وجهها:

_ كُلية الحقوق الحمد لله في الأول مشتغلتش لأن جوزي كان رافض بس بعد الطلاق رجعت لمجال دراستي تاني واشتغلت.

•انخرطت في حديث طويل وعميق مع سلمى عن حياتها في السنوات الماضية وكيف انتهى بها المطاف في تجربة الزواج، حكينا لبعضنا البعض الكثير والكثير من تفاصيل السنوات الماضية التي عشناها بعيدًا...

ثمّ في نهاية خطبة منار ودعتها على وعد مني أن آتي لزيارتها غدًا لاستكمال حديث لم نكن قد أتممناه بعد..

وودعت سلمى أيضًا على أمل لقائها من جديد عن قريب وأنا كلي انزعاج مما روته لي عن حياتها الأخيرة والتي يملؤها الكثير من الحيرة والمفاجآت غير المرغوبة...

•عدت إلى المنزل بعد ثلاث ساعات لأجد أمي قد طغت عليها أفكار الأمهات القلقة حيال مستقبل أبنائها ويا حبذا إن كان هذا المستقبل خاصًا بفتاة قد بلغت الثلاثين من عمرها دون زواج..

قد غادرت المنزل بترك أمي مع آخر كلمات منها وهي مهمومة بفكرها تجاه أمر زواجي ونظرات المجتمع التي لم تحاصرني أنا فقط بل حاصرت أسرتي كلها..

كان هذا وقتًا كافيًا لتكاثر الهموم حول أمي ونسج خيوطًا كثيرة من القلق والحزن والتفكير السوداوي، هيأت نفسي لوصلة عتاب ولوم وتجريح منها من جديد قد اعتدت هذا الأمر، متعب جدًا أن يكون أقرب الناس إليك هم أبعدهم لك في الإحساس والفكر، أبعدهم في تقديم الدعم النفسي، تدرك حينها ألا يجدي نفع انتظار ذلك من البعيد إن كان القريب لا يقدمه، إن كان الأهل أبعد ما يكون عن فهمك واحتوائك في وقت ضعفك ماذا ترتجي من الحياة إذًا!

أنت وحدك في مواجهة صعاب الحياة، عاري الروح ومكشوف للمحن.. دون يدٍ واحدةٍ تستند عليها!

نصف أوجاع الحياة، بل جميعها تهون على المرء إن كان يمتلك من الدعم والمساندة ولو القليل...

و- كالعادة - تدخلني أمي في نقاش مهين لروحي دون الحق لي في إبداء رأيي أو استيائي أُغالب فيه نفسي لعدم البكاء أو إظهار ضعفي..

لكن في هذه المرة لم أتمالك عندما قالت بنبرة حادة:

_خلاص يا تسبيح هتفضلي قاعدة جمبي كده من غير جواز، كفياكي بقى اتبطرتي كتير والمولد اتفض من حوليكِ ومبقاش في غيرك.. وبقيتي لوحدك ولو فضلتي بدماغك وتفكيرك ده هتفضلي طول عمرك وحيدة.

ثم استطردت حديثها مستكملة في تساؤل ساخر:

_فهميني كده مين دلوقت أصلاً يرضى يتجوز واحدة كسرت سن التلاتين وانطفى شبابها؟

•سمعت الكثير من العبارات المخزية والجارحة في حياتي واعتدت عليها منذ أن نشأ فكري هذا وأتممت العشرين من عمري وأنا أرفض بتصميم شديد، لكن في تلك المرة فقدت السيطرة على ثباتي وبدوت هشة ومزعزعة أمام حديثها..

أهكذا ينبغي على الأم أن تدعم أبناءها في أي وضع كان؟!

أهكذا الطبيعي والمعتاد أن تكون القسوة وتحطيم الخاطر من أقرب الأقربين؟!

أن تراني أمي هكذا ليس بجديد لطالما كانت بعيدة كل البعد ولم تكن يومًا داعمة لي في أي قرار...

تذوقت جيدًا مرارة التيه والحيرة والأيام الصعبة، وكذلك الكلمات وحدي دون معين إلا الله..

لطالما مددت يدي ليلتقطها أيٌّ من عائلتي.. قبضت يدي الباردة المرتجفة كانت موصولة بقلبي الخائف تود ولو أن تُدفَأ بين يدي أحد منهم.. لكن ظلت ممدودة أعوامًا طويلة دون جدوى، ليصبح شعورين بدلاً عن واحد..

شعور فقد الدفء والدعم وكذلك الخذلان والخزيّ وخيبة الأمل من الانتظار دون جدوى لأي وصل منهم!

انهمرت دموعي وأنا في حالة صمت تام أستوعب فورة المشاعر الحزينة التي هجمت عليّ ثم لم أستطع إلا أن أكمل ما بدأته في حربي ضد مجتمع يرفضني ويرفض فكري بشدة وأولهم أهلي..

قلت بنبرة هادئة أواري خلفها حزني:

_كفاية يا ماما أرجوكِ كفاية.. أيوا أنا راضية عن حالي كده وعمري ما هشوف نفسي غلط وهفضل أرفص وأرفض لحد ما ألاقي حد مناسب ليا يكملني، وحتى لو ملقتهوش مش هغامر وأدخل تجربة محكوم عليها بالفشل علشان أغير من شكلي قدام الناس..

ولا عمر كلام الناس فرق معايا ولا هيفرق، محدش بيشيل شيلة حد ولا حد وقت ضعفي وانهزامي وبهدلتي مع راجل مش شبهي هيجيي يلحقني ولا يطبطب عليا، هبقى لوحدي برضو زي ما قولتي من شوية.. في كل الأحوال لوحدي يبقى أفضل لوحدي بكرامتي وأنا على البر أحسن ما أرمي نفسي في بحر مفيش منه نجاة.. مش عايزة أكون زيهم متجوزة وخلاص أنا بختار حد لمشوار عمري كله مش ليومين لعب!

وعشان كده هفضل أرفض وأرفض لحد ما ييجي المناسب وأنا متيقنة جدًا أن مفيش حاجة اسمها القطر فات.. يفوتني القطر أحسن ما يدوسني!

•تركتها قبل أن تُرد وأسرعت نحو غرفتي وأغلقت الباب خلفي وأكملت وصلة البكاء دون صوت.. هدأت نفسي بذكر الله وبالدعاء الذي كان حبل النجاة لي دائمًا بعد كل ألم، تخطيت به كل الصعاب ويسر لي مراحل الصبر كلها..

قُلت بصوت خافت ناظرة إلى السماء: "ربي إني لما أُنزلت إليّ من خير فقير" ثمّ قمت وتوضأت وصليت القيام وعلى غير مناسبة تذكرت ما روته لي سلمى أثناء جلستي معها، قد يكون سبب تذكري مرة أخرى هو تأثري الزائد بما قالته، أدركت حينها أكثر المثل الشائع "اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته"، اليوم وكل يوم أُدرك ما كُنت وما زلت عليه من صواب.. هذا ما أكدته لي سلمى حين قالت...

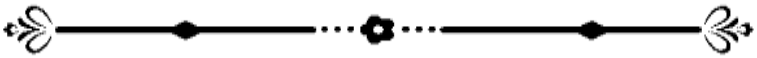

القصة الثانية: «سلمى»

"مشاركة الفكر والحب مع رجل مُثقف ومسؤول.. أكثر متعة من عيش قصة حبّ مع رجل جَميل!"

•بعد أن أتممت مرحلة الثانوية انتقلت أنا وعائلتي المكونة من أبي وأمي وثلاثة إخوة لي، إلى الفيوم حيث تعيش عائلة أبي، جدي وأعمامي الأربعة وزوجاتهم وأولادهم، وقد توفيت جدتي منذ خمس سنوات..

أبي هو الوحيد الذي انتقل للعيش في القاهرة، وذلك لظروف عمله التي حتمت عليه ذلك وهناك تعرف على أمي وتزوج منها، ثم عاشا مدة هنا في بيت العائلة وكان أبي يسافر للعمل في القاهرة ويعود ثلاثة أيام فقط في نهاية كل شهر للإجازة في الفيوم، إلى أن سئمت أمي تلك العيشة التي تحكم عليها برؤية أبي ساعات قصيرة فقط كل شهر، زيادة على ذلك عدم تأقلمها مع أجواء العائلة وأجواء الريف والحياة التي لم تعتد مثلها أبدًا، وسرعان ما لبى أبي طلب أمي بأخذ بيت لهما في القاهرة، واستمرت الحياة هكذا، نأتي لزيارة جدي وأعمامي في الأعياد والمناسبات، والحياة في القاهرة تشغل من لا شغل له بطبيعتها المزدحمة والسريعة...

ومع مرور ثمانية عشر عامًا حتى ذلك الوقت، قرر أبي العودة للإقامة في بيت العائلة مدة غير محددة، وذلك لسوء الحالة الصحية التي أصبح عليها جدي لمراعاته والاطمئنان عليه كل يوم..

في البداية لم أتكيف مع الأجواء الجديدة والتي لم أرغب بها أبدًا مثل والدتي في بدايات زواجها حتى أنني طلبت من أبي أن يتركني بمفردي في القاهرة لحين عودتهم ثانية، لكنّه رفض بشدة، فذهبت معهم إلى الفيوم على أمل أن يأتي تنسيق جامعتي في القاهرة فأعود إليها مرة أخرى وأقيم في سكن الجامعة.. لكن أتت رياح قدري بما لا تشتهيه سفن إرادتي ورغباتي، لتظهر النتيجة والتنسيق والكلية التي وضعتها في الرغبات بمتابعة والدي لكل ذلك ليجعلني بجانبه في الفيوم، وقد كان، رضيت بقدري لكن الملل من يوميات المعيشة في بيت جدي كان لها النصيب الأكبر..

ما هوّن عليّ الحياة هناك والتأقلم قليلاً هو وجود حبيبة ابنة عمي..

حبيبة تكبرني بثلاث سنوات، فكنا نتشارك كل شيء، السهر والأحاديث والأسرار، تقربنا كثيرًا لكن ظلت هناك الكثير من الأفكار نتعارض بها ونختلف في ميولنا لها..

حينها لم أكن أعلم أهي على حق أم أنا، لكن الأكيد أنني عرفت فيما بعد...

كانت تمثل البئر العميقة لأسراري وأفكاري، حتى مع تعارضها واختلافها..

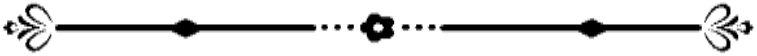

• ذات يوم كنت أجلس أشاهد مسلسلاً تركيًا، حيث إنّ الممثلين الأتراك لديهم وسامة طاغية كما يعترف الجميع بذلك، ولديهم مظهر جذاب يجعل الفتيات في غاية المتابعة لهم ولمسلسلاتهم، حينها دخلت حبيبة غرفتي..

قلت لها بحماس مشيرة إلى جهاز التلفاز:

_تعالي يا حبيبة بسرعة شوفي بطل المسلسل ده بقالي ساعة بس سمعت حلقيتين لكن حاجة كده تحفة أيه الجمال ده!

كنت أتغزل ببطل ذلك المسلسل..

جلست حبيبة بجواري وقالت بملل:

_آه منك يا سلمى أنتِ يا بنتي مبتزهقيش من المسلسلات دي.. وكل شوية تُعجبي بممثل غير التاني، ده إيه الثبات على الموقف ده!

وبعدين بقى مش في حاجة اسمها غض البصر ولا إيه أحنا نسينا!

قُلت بتأفف وأنا أمسك بجهاز التحكم الإلكتروني وأغلق التلفاز:

_خلاص يست متزعليش حاضر هقفل أهو يا رب ترتاحي كده.

وأكملت في هيام قائلة:

_مش معقول كده كلهم أجمل من بعض يا رب أتجوز واحد عسول زيهم كلهم كده.

قالت حبيبة مُعيدة لكلامي بطريقة مضحكة:

_واحد عسول زيهم كوووولهم كده.. أيه عايزة كوكتيل!

قُلت بتمني:

_يا ريت والله حد يجمع كل صفاتهم.

قالت وهي تنهض من جواري متجهة للنافذة:

_لسه زي مانتي برضو مش عايزة تغيري دماغك وتفكيرك ده، كل ما تشوفي أي حد أنعم الله عليه بهيئة جذابة شوية تتهبلي كده!

مش معقول حتى مفيش حاجة بتجذبك خالص في الراجل غير شكله!

قُلت متسائلة:

_وهو المفروض أنجذب لأي غير شكله يعني؟ وبعدين من حقي أختار حد أحب شكله ويعجبني..

قالت بهدوء:

_ طبعًا من حقك ونص كمان، بس زي ما لازم ترضي عن شكله ويعجبك لازم برضو تركزي في صفات تانية جوهرية هتفرق معاكي جدًا..

في حاجات كتير يا سلمى أهم من الوسامة الشكلية، في حاجات تغنيكي مليون مرة عن الوسامة الخارجية.. وحاجات تانية ولا كل جمال الدنيا يغنيكي عنها!

قُلت بتفكير:

_أمم يمكن! بس أنا مش هقدر أختار غير حد كده مش أقل من كيفانش أو بوراك أو حتى توم كروز.

قلت ذلك وأتممت حديثي بضحكة عالية..

أردفت حبيبة بملل:

_والله! كده يعني طيب أما نشوف آخرتها معاكي يبتاعت توم كروز أنتِ.

•ثم مرت الأيام حتى خُطبت حبيبة لشاب يشبهها كثيرًا في فكرها ومبادئها التي كنت أراها حينها غريبة!

ليست في ذلك فقط إنما الكثير والكثير غيرها!

ولحين بدأ العام الدراسي وانشغلت بالجامعة والدراسة وسعيت لتكوين صداقات جديدة أعوض بها ما فقدت من صداقات..

ونسيت حديثًا كان قد دار بيني وبين حبيبة - يومًا ما- لم أعره اهتمامًا ولم أُحصّل فائدته!

حتى ذلك اليوم الذي تغيرت فيه حياتي يوم أن ظهر بها خالد، تعرفين ذلك البطل في أفلام هوليود، لا أبالغ حينها في تشبيهه بهم..

لست وحدي من كان يرى هكذا كل فتيات الدفعة أيضًا، خالد ذلك الشاب الذي يتصف بالوسامة الشكلية يخطف الأنظار منذ الوهلة الأولى، ليست وسامة ظاهرية فقط، بل وسامة وخفة ظل وجاذبية لا حدود لها..

تعرفين ذلك النوع من الشباب الذي تطير الفتاة كالفراشة إن تحدث لها أو أبدى لها بإعجابه..

-بالطبع- فتيات الجامعات في ذلك العمر فقط!

كان باهرًا في جماله وفي لفت النظر له بأقل ما يمكن، له خفة ظل لا حد لها، يعرف كيف له أن يشغل عقلك به دون أن يبذل أي جهد لذلك، إن حضر

تحضر معه هيبة الشكل والهيئة.. تجدينه في كل مكان يثبت حضوره بتفاعله الملحوظ، فتجدين جموعًا من الفتيات تجتمع وراءه من أجل ماذا؟!

إثبات حضورهم العلمي!

أتظنين ذلك -بالطبع- لا...

من أجل إثبات وجودهم بجانبه ولفت نظره وخلق أي حديث معه لربما تكون إحداهن في يوم ترتدي خاتم خطبة قد نقش بداخله حروف اسمه..

هو أيضًا لا يسعى للتعليم أو الدراسة، يجوب الكلية كل يوم هنا وهناك دون هدف، يتحدث مع هذه وتلك، يضيع اليوم دون فائدة، يأتي لكل شيء في الكلية إلا العلم، يقولون بأنه رسب أول عام في السنة الأولى له في الكلية، يعني أنه أكبر بعام، يتأخر عن القدوم للمحاضرات ولا ينفذ أي طلب من طلبات دكتور المادة، يفعل كل ما يحلو له متباهيًا بنفسه في فخر، تستطيعين رؤية كِبر وغرور الطاووس في عينه..

ولما لا رغم كل تلك الصفات السيئة تظل تهفو له القلوب ويظل محط نظر الجميع..

وهكذا ظل الحديث الخاص بين الفتيات كل يوم على مدار الأربعة أعوام في الكلية عن خالد وماذا فعل خالد وماذا قال خالد وأين ذهب؟!

تشعرين أنّ لا رجل في تلك الدفعة سوى خالد، حينها اقتنعت أن كيف للنساء بتقطيع أيديهن من رؤية رجل والإعجاب الشكلي به كما فعلت نساء امرأة العزيز حين رأين يوسف الصديق..

يوسف -عليه السلام- الذي أخذ نصف جمال الدنيا له وحده، إذًا يمكنك تخيل هذا!

•لا أكذب حينها كنت قد أغرمت برؤيته أيضًا، لكن كنت أتصنع اللا مبالاة تجاهه وأتحاشى أن أذكر اسمه حتى لا أساوي نفسي بتلك الفتيات، تعرفين شيئًا كنت طيلة حياتي لا يجذبني أبدًا ما يجذب الجميع، تجدينني دومًا في كل شيء خالٍ لا يمت للازدحام بصلة، ولكن ما جرى لي عكس كل توقعات حياتي الماضية؛ رغم هذا وجدت نفسي دون وعي مني أقع كل يوم في شِباك الإعجاب به دون أن أبدي الاهتمام به أمام أي فتاة لكي لا أصبح مثلهم في غمرة الازدحام المبالغ به حول ذلك الخالد العجيب، لكن في أعماق نفسي أعرف جيدًا أني في غاية اهتمامي بكل تفاصيله، في غاية إعجابي وفي طريقي للوقوع في حبه، أتصنع عدم الاهتمام أثناء حديث الفتيات عنه وأنا أضع أذني في كل جملة تحتوي على اسمه، أقول لهم في عصبية غير مبررة: كفاكن حديثًا عن ذلك الشاب أليس لدينا ما يستحق النقاش غيره!

وأنا بداخلي أتوق لسماع المزيد عن أخباره.. أدركت أنّ لدي موهبة جديدة وهي التمثيل، لأنهن صدقن جدًا أني غير مهتمة به، لا أعلم حينها لماذا تضاربت أقوالي مع أحاسيسي ولماذا تصنعت كل هذا أمامهن!

ولمَ تلك الحرب القائمة داخلي حول نفي ما أشعر به تجاهه وحول تصديقه في أوقات أخرى؟ لكن الأكيد أني كنت قد وقعت كما وقعن دون أن أشعر بذلك..

أعتقد أن كل ذلك التضارب والتشتت نتيجة انزعاجي بأني خالفت أحد طباعي في ألا أكون جزءًا من الازدحام هذا، جزء من انجذاب الجميع وأنا التي لا أعرف إلا الاختلاف وعدم الانسياق وراء كل شيء، حتى لو كان إنسانًا!

كل يوم أقول لنفسي: لا، أنا لست مثلهن وهو أيضًا لا يُعنيني أبدًا.

أكذوبة أفتعل تصديقها كل يوم!

كل ذلك وخالد لا يراني أصلاً وذلك بحكم بعدي عنه كل البعد، أتحاشى حتى الاختلاط به في أي مكان عكس كل الفتيات..

حتى ذلك اليوم صباحًا في استراحة الكلية عندما كنت جالسة أنا وريهام صديقتي التي تعرفت عليها منذ أول يوم في الكلية..

بعدما أصبحت حبيبة منشغلة عني بعض الشيء بعد خطبتها واستعدادها للزفاف

قالت ريهام بصوت خافت ناظرة بعيدًا:

_بصي مين جه هناك، أهو خالد وصل.

نظرت نظرة سريعة، ثمّ أشحت بنظري عنه وقُلت في برود مصطنع:

_أيوا وإيه يعني ما خلاص بقى زهقت كل يوم خالد.. خالد.

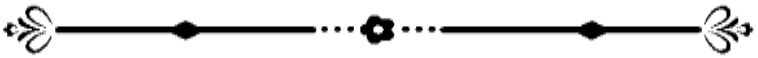

أصدرت ضحكة قصيرة وقالت بشك:

_لا والله، اعملي تقيلة بقى ومحدش فارق معاكي.

ضحكت وقُلت في لا مبالاة:

_لا يا حبيبتي أنا فعلاً محدش بيفرق معايا

أعادت ريهام بابتسامة خبيثة:

_طيب أما نشوفوا هتفضلي لحد أمتى محدش يفرق معاكي وعلى فكرة المبالغة في إنكار الشيء إثبات..

بتوتر قُلت:

_قصدك إيه يعني!

اقتربت مني وقالت:

_يعني لو هتمثلي عليهم كلهم أنه مش فارق معاكِ، فأنا مش هصدق ده، أنا ريهام يا سلمى عِشرة أربع سنين مش شوية يعني وأفهمك من نظرة عين، ساعات الإنسان بيكون مشدود أوي بس بيقاوح وأنتِ شكلك كده..

قُلت محاولة تغيير الموضوع:

_ريهاااام متعمليش فليسوفة عليا بقى خلاص بجد.

ريهام بضحك:

_آه أنا شايفة الضحكة في عنيكي أهو كشفت أمرك.

أمسكت الدفتر بين يدي ناظرة فيه هاربة من نظراتها:

_لا كشفتي ولا حاجة أصلاً خابت توقعاتك المرادي..

أخذت الدفتر من يدي واضعه إياه على المنضدة وقالت وهي تنظر لي بتأكيد:

_لا مخابتش أنا متأكدة، يا سلمي لو كله مش واخد باله أنا واخدة بالي أوي أنه شاغل بالك،

ولا هتخبي عليا أنا كمان.

قُلت بنفاد صبر:

_بقولك إيه اسكتي بقى خلينا نشوف هنعمل إيه في امتحان يوم السبت أنا عايزة أجيب تقدير السنادي.

ضحكت قائلة:

_أيوا يا ست اللّٰهُمَّ لا حسد كل سنة تقدير عايزة تختميها صح.

أومأت بابتسامة ثقة وقُلت:

_الله ينور عليكي يا فالحة، يعني مش فاضية للإعجابات والكلام ده.

بضحكة ماكرة قالت:

_برضو مصممة على إنكارك بس على مين ده أنا ريهام.

ضحكنا سويًا هكذا تمكنت ريهام من أمر طالما خبأته لكنّها أقربهم لقلبي ولعقلي تفهمني جيدًا فكان بوسعها تدارك ذلك وملاحظته رغم كل ما أفتعله ليتضح عني العكس، تبادلنا أحاديث كثيرة عن الامتحانات والكلية وأصدقائنا و- بالطبع- لم يخلُ الحديث من ذكر خالد ثانيةً..

•مرت الأيام على هذا المنوال نفسه، حتى جمعني القدر بخالد في تعامل مباشر لا مفر منه؛ ولأنّني كنت من اتحاد الطلبة، فكان من الطبيعي جدًا أن

يكون هناك تعامل مباشر بيني وبين كل الطلاب، وهنا كانت نقطة المعرفة بيني وبين خالد دون سعي مني، كان هو قد أتى قدرًا لي لنبدأ حكايتنا معًا، مرة بعد مرة يسأل عن محاضرة، يطلب ملخصًا، وهكذا مرت أيام السنة الأخيرة في الكلية وأنا وخالد على تواصل مستمر، حاولت بقدر المستطاع أن يكون تواصلًا سطحيًا، كان التعجب ما يثير اندهاشي من أفعاله، أليس أنت خالد البعيد كل البعد عن الاهتمام بالدراسة والمحاضرات، لمَ الآن تهتم هكذا؟!

راودتني أفكار كثيرة عن ملاحظتي باهتمامه بي، لكنّه يخفيه باهتمامه بالمحاضرات، لكن كنت أنفي أحاسيسي خوفًا من أن أكون أتوهم، حتى انتهينا من ذلك واقتربت امتحانات آخر العام ولم يعد هناك أي شيء يجعل خالد طوال الوقت مصممًا على الحديث معي والتواصل، سواء في الواقع أو على مواقع التواصل، لا أنكر أني كنت في غاية الفرحة بذلك الاهتمام منه، وأحاول ألا يظهر هذا عليّ أمامه أو أمام أي من رفيقاتي سوى ريهام التي كانت قد تيقنت من إحساسها بي، كنت متقنة في إخفاء مشاعري ببراعة أمام الباقين، والحقيقة أنّ لا شيء يجرفنا للهاوية كما تفعل مشاعرنا!

ظللت طوال مدة تقربه مني لا أعلم، وماذا بعد لماذا تتقرب هكذا وما نهاية هذا، أريد أن أرى ما في نهاية ذلك المطاف، لا أنا من تلك الفتيات التي تريد أن تلهو وتلعب معك ولا أنت مهما فعلت ستحصل مني على أي استجابة، لست مثلهن على أية حال..

إلى أن انتهينا من امتحانات آخر العام والآن لم يعد أي حجة لتواصله ولحديثه معي، حتى تلقيت منه اتصالاً في ذلك اليوم يخبرني فيه أن..

خالد:

_أزيك يا سلمي؟

قلت بارتباك:

_ الحمد لله يا خالد.

صمتنا للحظة، من المفترض هو المتصل أتساءل في داخلي لمَ ذلك الاتصال وقد انتهت كل حجج التعامل نحن في إجازة؟

انتبهت على صوته ليقطع تفكيري:

_كنت بتصل أطمن عليكي، أمم وحشاني أكيد و...

•شعرت بخفقة قلبي السريعة ما بين أنه يتعدى حدود تعامله وهذا غير مصرح له به وما بين فرحة قلبي بأنّ مشاعره تقترب من الوضوح لي.. لكنّي تداركت سريعًا هذا نذير خطأ..

قاطعته بنبرة حادة:

_خالد! لو سمحت بدون تفاصيل ممكن تقولي متصل تاني ليه، آخر اتصال أول امبارح مش لاقية ليه تفسير لحد دلوقت بحاول أفهم مبررات اتصالاتك الكتير، بس تمام شوية عن ظهور النتيجة وغيره لكن المرادي مفيش عذر فياريت متتصلش عليا تاني أنت فاهم مبادئي وفكري!

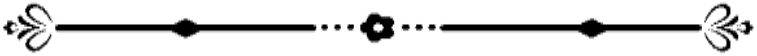

قال بهدوء:

_سلمى أنا بحبك.

•لثوانٍ كدت أتوقع أنني أتخيل، ماذا قال؟ اعترف بحبه لي، لولا أنه أعاد الكلمة على مسامعي لم أكن لأتأكد..

تتخيلين أن يختارني من بينهن جميعًا، كان هذا التخيل كفيلاً ببث كل مشاعر الفرحة داخلي، أنا وخالد!

هذا أشبه بالخيال بعد كل هذا البعد يصبح يراني وحدي أنا، أن أكون من بينهن جميعًا من حظيت بحبه واهتمامه رغم كل طرق البعد التي وضعتها بقدر المستطاع بيني وبينه.. كنت أشعر في المدة الأخيرة أنّ ما بيني وبين خالد لن ينتهي هكذا بانتهاء الدراسة، كنت أشعر برابط قويّ سيجمعنا أو أنّ -على الأقل- كلّ تلك الحجج التي يضعها ليتقرب مني ليست من فراغ.. لكن لم أتخيل أن يعترف لي بكل تلك السرعة والصراحة الواضحة، فجأة أصبح للحياة لون عندي، ليس الآن فقط منذ أول يوم لظهور خالد وأنا أحببت الكلية وانتهى بتاتًا وجود الملل والرتابة التي عشتها منذ قدومي للفيوم أحببت حتى القدر الذي أتى بي من القاهرة للفيوم؛ ولأنه يعلم جيدًا ما أنا عليه من مبادئ..

مهما فتحت له من تعامل بحدود في إطار الدراسة إلا أنّ هذا هو آخر حد له في التعامل لا سبيل لتجاوزه، ولذلك كان موعد مقابلته مع أبي هي أول مفاتيح علاقتنا، بعد أن وعدت خالد بتلك المقابلة فقط بعد ظهور

النتيجة، لأنّ هذا ليس الوقت المناسب كما قال لي والدي، وقد كان، ظهرت النتيجة واطمأننت على تقديري الذي كان امتيازًا بينما خالد رسب في ثلاث مواد..

لم أندهش على الإطلاق كلانا يعلم أنه لم تُعنيه الكلية أو التخرج نهائيًا من قبل ومع ذلك لم أفكر لحظة في فرق المستوى العلمي والثقافي المختلف بيني وبينه، كان حبي له يفوق كل هذا..

كما وعدت أبي بتقدير الامتياز ووفيت بوعدي كان عليه تحقيق وعده لي بقدوم خالد والتعرف عليه كما وعدني عندما تحدثت معه بهذا الشأن - بالتأكيد- أخفيت على أبي أمر رسوب خالد في المواد وأقنعته بأن خالد نجح بتقدير جيد، كذبة دفعت ثمنها فيما بعد!

لكنه أبي الذي لا يخفى عليه أي أمر يخصني، بالفعل سأل على خالد قبل مجيئه للبيت، عرف عنه كل شيء... إلا كذبتي!

أتذكر جيدًا ذلك اليوم الذي أتى فيه خالد لبيتي يطلب يدي من أبي.. ليظهر الرفض على وجه أبي من أول دقيقة بعد خروج خالد..

قال أبي في جمود:

_مفيش نقاش، أنا فتحت ليه مجال دخول البيت ده وأني أقعد معاه بس علشان إصرارك وتمسكك لكن أنا دلوقت متيقن أكتر أنه مش مناسب ولازم يترفض وده قرار أخير!

قُلت بحيرة:

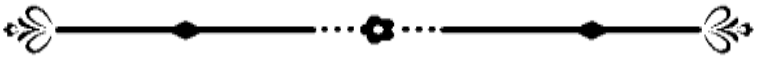

_بس حضرتك وعدتني!

قال بلا مبالاة وهو ينظر للجرنال الذي يمسك به بين يديه:

_وعدتك أقابله.. لكن موعدتش أني أوافق عليه!

قُلت مستفهمة:

_وليه يا بابا متوافقش عليه؟!

رفع رأسه ونظر لي وقال باستياء:

_أوافق عليه أزاي وهو شخص غير متحمل للمسؤولية، لسه بياخد مصروفه من أبوه.. شاب في سنه كده يشتغل ويدرس ويصرف على نفسه بنفسه، إنما لما أسأل عليه وألاقيه عيل مقضيها فُسح وخروجات وسهر وميعرفش إزاي يكون راجل في تصرفاته ومش عارف قيمة الفلوس لأنه مش بيتعب فيها بنفسه.. إنما اللي بيجي سهل بيروح سهل، عيل وحيد أبوه وأمه ومدلعينه وشايف نفسه، مغرور وتافه، ده غير مشاكله اللي سايبها في كل مكان يروحه!

مش ده الراجل اللي أطمن عليكِ معاه، مش ده الراجل اللي أتمناه لبنتي وأبقى عارف أنه هيحافظ عليها..

•لم أتمكن من إكمال الحوار مع أبي وثنيه عن هذا القرار لأنه نهض وتركني بمفردي، دخلت غرفتي أبكي.. طرقت أمي باب الغرفة طرقة خفيفة، ثمّ أمسكت بمقبض الباب ودخلت..

دار نقاش بيني وبينها أتذكره لليوم أتمنى لو يعود! جلست بجانبي واحتضنتي وقالت:

_وبعدين يعني هتفضلي تعيطي كده لحد أمتى، يا حبيبتي بباكي خايف عليكي وعلى مصلحتك.

قاطعتها بصوت حزين:

_خلاص يا ماما بقى مش كل مرة كده.. كل حاجة في حياتي بتكون برأيه واختياره حتى قرار أني أقعد في الفيوم هنا برضو كان برأيه، مفيش حاجة كان ليا فيها دخل، نفسي أختار مرة بنفسي حاجة واحدة في حياتي بقى، تعرفي أني محبتش وجودي في الفيوم غير بعد ما شوفت خالد وعرفته!

قالت بهدوء:

_سلمى حبيبتي الحب وحده مش كفاية، سلمى أنا كنت طول العمر صاحبتك قبل ما أكون مامتك، النهار ده عايزة أفهمك أن في حاجات كتير في العلاقات أهم من الحب أو حتى لازم توازيه وتتكافأ معاه علشان يبقى في ضمان لنجاح العلاقة دي..

صمتت أمي لثوانٍ ثمّ استطردت حديثها مستكملة:

_سلمى عايزة أفهمك حاجة مهمة أوي، الفرق بين الشخص الناضج والغير ناضج مرتبط بالتجارب والتحديات اللي عاشها في حياته والقرارات المهمة اللي كونت شخصيته، سواء كانت قرارات صح أو غلط واتعلم منها..

وتحديدًا التجارب والظروف الصعبة اللي مر بيها اللي بتخليه شخص قد المسؤولية وعنده حكمة ونضج كبير.

الشخص الناضج ده بقى بيكون حد قادرة تعيشي معاه بأمان أكبر وتحسي أنك سايبة شراع سفينة حياتكم يحركها بحكمته وعقله الراجح، حد عارف أزاي يقاوم العواصف من غير ما تتأثري..

وأظن ده مش موجود نهائي في خالد وأنا وأنتِ متأكدين من ده كويس..!

قُلت بعناد:

_ماما أنا بحب خالد وموافقة أعيش معاه على أي وضع هو فيه.. وأتقبل عيوبه قبل مميزاته.

قالت أمي بقلة حيلة:

_سلمى تخيلي أن رفض بباكي لخالد مبني على السبب الوحيد الواضح، أنتِ ناسية أنك مخبية عليه فشل خالد في دراسته..

أنتِ ناسية أنتِ أيه وهو أيه مفيش أي مقارنة ما بينكم مش فاهمة إزاي سمحتي لنفسك تحبي حد عمره ما هيكون بينك وبينه تطابق، سلمى أرجوكي راجعي نفسك علشان تفكيرك ده يوضح عدم نُضجك لحد دلوقت، ولأني عرفاكي كويس أنتِ بنتي وفاهمة دماغك..

مفيش حاجة شداكي في خالد غير فرحتك بيه وبشكله زي ما كنتي بتتخيلي وبتتمني وبتتفرجي على أبطال المسلسلات فلقيتي خالد واحد منهم على أرض الواقع، وفرحتك بأنك الوحيدة اللي هتبقى فازت بيه عليهم كلهم.. في

جوا عينك نظرة تباهي وغرور هتبان أكتر لما تبقى مخطوباله وهو ده اللي أنتِ عوزاه وبس ومغمضة عينك عن كل العيوب التانية علشان ميزة واحدة سطحية أوي.. في المستقبل لما تكبري وتنضجي هتفهمي أن الشكل مش كل حاجة..

ثم صمتت قليلاً وأردفت بسخرية:

_لما تحتاجي تخوضي معارك حياتيه وقرارات مصيرية محتاجة خبرات وثقافات ونضج كافي محتاجة راجل بجد أبقي استعيني بشكله وجماله..

ثم ذهبت وتركتني شاردة الذهن فيما قالت..

لكن العِند كان من أكبر خصالي، فأقنعت عقلي بأنّ حبي لخالد يكفيني لتحدي الحياة كلها.. وأني أُحبه لنفسه ليس لشيء آخر ولا لصفات أخرى، هذا ما قُلته حينها لكن الآن بعد مرور كل هذا العمر أتقنت أني أيضًا بارعة في الكذب على نفسي!

مر بعد ذلك أسبوعان على يوم مقابلة أبي لخالد..

أسبوعان على التشتت والحزن ومحاولات لا جدوى منها مع والديَّ لتغيير قرارهما..

حتى أتى موعد زفاف حبيبة الذي أعاد ولو القليل من تغيير الأجواء وقدوم البهجة..

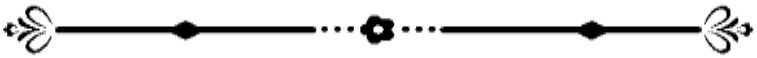

كان زفافها زفافًا بسيطًا وراقيًا، كنت في غاية فرحتي بحبيبة.. الابتسامة لم تغادر وجهي برؤيتي لها بالفستان الأبيض، كُنت ملازمة لها طوال اليوم.. وكان هناك من يراقبني بهدوء وعن بُعد!

مر الزفاف على خير ورجعت لروتين الضغط على والديّ بالموافقة على خالد وصمموا هما على الرفض!

حتى فاض بي الكيل حينما جاءت أمي تقول:

_سلمى.. حبيبة بنت عمك صاحب جوزها شافك في الفرح وكلم بباكي وأخد منه معاد وبباكي مرحب أوي بيه.. فلازم تجهزي نفسيًا كده علشان تقعدي معاه بكرة..

لوحت بيدي وقُلت في عصبية شديدة:

_لا والله بجد هي بقت كده، أنا نفسي أفهم في أيه كل حاجة مليش فيها رأي ولا قرار، طيب مبدئيًا كده أنا مش موافقة ومش هقعد مع حد..

دخل أبي الغرفة بعدما سمع حديثي..

قال بغضب:

_صوتك عالي كده لي، ممكن نتناقش بأسلوب هادي ومن غير عصبية..

قُلت بحزن:

_بابا أنتوا حتى مش سايبين ليا فرصة للنقاش!

قال أبي بحزم:

_سلمى لو لسه عايزة تفتحي مجال لحوار خالد فأنا قولتلك مليون مرة الحوار ده اتقفل نهائي ومفيش فيه رجوع يا ريت تتقبلي وتعقلي كده وتهيئي نفسك لمقابلة بكرة!

قُلت:

_وأنا مش عايزة وزي ما كان لحضرتك الحق ترفض أنا كمان من حقي أرفض..

زفر بضيق وقال:

_أنا رفضت بعد ما قابلت خالد، عطيته فرصة وقعدت معاه، يبقى المفروض أنتِ كمان تقعدي مع عاصم وبعدين تقرري، متحكميش على حد من غير ما تعرفيه أصلًا.. وطبعًا أنا لو بفرض عليكِ كل حاجة مش هفرض عليكِ حد ولا هغصبك بالذات في الجواز، بس على الأقل أديله فرصة زي ما أنا طاوعتك وعطيت لخالد فرصة، لذلك كان رفضي مبني على أسباب واضحة.. وأنا مش هقبل رفضك غير بأسباب واضحة!

كنت ما زلت على تواصل بخالد بعدما وصله خبر رفض أبي له، فأخفيت عليه أمر ذلك العريس على أمل مني بانصياع والدي لرفضي وتقبله لخالد.. أردت فقط أن أُهدئ من رفض أبي وغضبه لإصراري فوافقت على مقابلة عاصم.

عاصم شاب في أواخر العشرين، ذلك ما عرفته فقط عنه قبل أنا يأتي، ثمّ جلسنا سويًا نتحدث ونتعرف.. جلستي مع عاصم كانت مختلفة إلى أبعد حد، رغم أنّها كانت فقط ساعة إلا أنّ الحديث كان شيقًا جدًا، لا أنفي بأنّه كان شابًا جميلًا ولبقًا في حديثه، مثقفًا ومطلعًا، له خبرة في الكثير من المجالات، آفاق عقله ممتدة واسعة.. خُضنا نقاشات عدة طرح كلانا رأيه فيها بكل صراحة.. رأيت الرجاحة والحكمة في عقله، كل كلمة في حديثه تتخذ موضعها الصحيح، كثير القراءة في الأدب العربي والعالمي..

اكتشفت أنّ هناك الكثير من الموضوعات المختلفة تستحق التفكير والتأمل والنقاش؛ ساعة فقط معه خرجت منها بالكثير من المعلومات، اكتشفت أنّ بوسع الستين دقيقة أن يصبحوا دقيقتين عندما يكون من يشاركك فيها شخص يعرف كيف يتجاذب أطراف الحديث من سياسة إلى دين إلى علم نفس إلى حياة عامة..

الوقت يمر سريعًا دون أن تشعر في مثل تلك الجلسات الملهمة..

انتهيت من ذلك اللقاء الذي كان بثُقل الجبل على قلبي قبل أن أرى عاصم، ثمّ زال الإحساس في جلسة واحدة، رغم أني اندهشت من طباع وأخلاق عاصم وحكمته الواضحة وعرفت الكثير عن حياته التي تستحق التقدير والاحترام، على عكس ما كنت أظن قبل أن أراه على أساس أنه شاب مثل أي شاب يرغب في الارتباط الرسمي بي ليس إلا.. لكن الحقيقة كانت مختلفة، ورغم كل هذا إلا أنّ حبي لخالد كان قد أخذ موضعًا أكبر بسبب

فترته الأطول وتعمقه في داخلي على فترات طويلة، كان قد ترسخ بي لا محالة، فلم يحرك عاصم بي أي شيء سوى عقلي بينما كان خالد قد استحوذ على القلب مبكرًا..

قلت لأبي بعناد وتحدٍ:

_خلاص يا بابا أنا قعدت معاه زي ما حضرتك طلبت ودلوقت من حقي أرفض.

قال أبي بغضب مكتوم متسائلًا:

_وإيه سبب رفضك بقى؟!

_حضرتك متخيل الشخص اللي أنا قعدت معاه ده وضعه عامل إزاي.. ده حتى مكملش تعليمه وأنا مش هقدر أتجوز حد مش معاه تعليم عالي زيي!

نظرت لي أمي نظرة حادة، فلو أن النظرات تقتل لسقطت أرضًا!

أنا وهي فقط نعلم حماقة ما أقول أمام وضع خالد التعليمي في المقابل...

لكنه المبرر الوحيد أمامي للفرار من زيجة مغمضة العين والعقل عنها تمامًا، لا أضع لنفسي ولو فرصة واحدة لتأملها والتفكير بها.. وأنا أعلم جيدًا أن بعد جلستي مع عاصم لم أجد فرقًا نهائيًا بيني وبينه في المستوى التعليمي، بل رأيت فيه سمات لم أجدها أحيانًا فيمن أكملوا مستويات عالية من التعليم..

قال أبي بصوت هادئ:

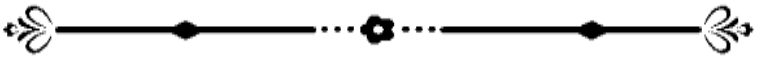

_بس أنتِ عارفة يا سلمى أن عاصم هو الراجل الوحيد ما بين أختين وبباه مات وهو في سن صغير، واضطر أنه يتولى شغل بباه من بعده علشان يقدر يصرف على مامته وأخواته، ولأنه شاب طموح كبر الشغل وطوره وعرف يصرف على أخواته وعلمهم تعليم عالي زيك وضحى بمستقبله عشانهم وكمان عرف يجهز بنت منهم ويجوزها.. يبقى راجل وقد المسؤولية ويستحق فرصة ولا لا؟!

قُلت بتغطرس:

_ميمهنيش يا بابا دي حياته وهو حُر فيها لو اللي هو عمله ده بطولة يعني تستحق أوي كده فتمام لكن أنا مش هكون مع حد مش عيزاه..

قال محاولاً إقناعي:

_طب ما لو أنتِ كل اللي همك موضوع تعليمه ده، هو بنفسه قالك إنه هيكمل تعليم مفتوح ويدخل كلية بجانب متابعته لشغله، يبقى إيه تاني بقى يخليكي ترفضيه؟ على الأقل أقعدي معاه تاني وسيبي لنفسك فرصة تتعرفي عليه..

شاب محترم وطموح ومثقف جدًا وكان متفوق في دراسته لكن ظروفه حتمت عليه يخوض طريق تاني وهو كان قده بصبر وعزيمة..

قُلت بنفاد صبر:

_أولاً أنا مضمنش يكمل في تعليمه ولا لا مش جايز كلام بس علشان ينول رضايا، وحتى لو ده حقيقي أرجوك يا بابا متضغطش عليا لأني بجد مش عايزاه حتى لو مفيش عيوب فيه..

وقبل ما ننهي الحوار ده أنا مش هقبل بأي حد غير خالد وبس، علشان حضرتك تكون فاهم أني مش هقعد مع حد تاني، بعد إذنك.

أنهيت حديثي وانصرفت في غضب مكتوم!

حينها لم أكن أعلم أكان رفضي المستميت لعاصم مبنيًا فقط على حبي لخالد أم كان وراءه رغبة شديدة ومخفية في مخالفة قرارات أبي المفروضة عليّ دائمًا - دون حق - في النقاش والاختلاف أو الرفض، أعتقد كان لهذا تأثير أيضًا..

لكن الغريب أني رأيت في عاصم أهم صفة افتقدتها في أبي وهي إعطائي فرصة في إبداء رأيي والتعبير عن احتياجاتي دون تقييد، يمتلك لغة حوار ونقاش لها معنى حرك في إحساس عظيم افتقدته لسنين، كما أنه أقنعني بأشياء لم أكن لأقتنع بها من قبل، بمنتهى السلاسة واليسر دون أدنى تعقيد رأيت نفسي أوافق على رأيه وأؤيده...

وكل هذا في جلسة واحدة... فكيف بعيش العمر معه... شخص كهذا أستطيع معه قول كلمة لا التي لم أجربها قط...

فيما بعد أدركت أن الحرية والنضج والحكمة تمثلت في عقلي على هيئة عاصم...

كان لكل من والدي فكرة في رفض خالد وكذلك في الموافقة والإعجاب بعاصم.

كان أبي ينظر لخالد على أنه لا يمتلك مقومات الشاب الصالح الذي يتمناه لابنته الوحيدة، بينما عاصم شاب مكافح وطموح بأقل الإمكانيات المتوفرة لديه، ورغم صعوبة ظروفه ووفاة والده وهو في سن مبكرة إلا أنه عرف كيف يبني مستقبلًا ناجحًا ولو على أقل احتمال.. رأى في عاصم الحكمة والعقل بينما خالد كان يملؤه الطيش والغرور والاستهتار...

على الرغم من أنّ ظروف الحياة لعاصم كانت صعبة إلا أنه تحداها بصبر وتحمل للمسؤولية، في هذا لم يشعر أبي أنه أنصف أحدًا على أحد.. ولم يظلم خالد بانجذابه لعاصم... لأنّ منهم من عرف كيف يخوض الحياة ويتحدى الظروف ماديًا وعقليًا ومنهم من غاص في الفشل رغم وجود كل المقاومات التي تساعده على النجاح...

أما أمي برغم إيمانها برأي أبي وتؤيده إلا أنها رأت الأكثر والأصدق وهو فشل خالد في كل شيء إلا في جذب الأنظار وأولهم نظر ابنتها، فشلَ دراسيًا وعمليًا وثقافيًا.. لكن ابنتها المغفلة من وجهه نظرها ما زالت متمسكة به رغم كلّ العيوب، يقولون مرآة الحبّ عمياء، أحيانًا في الأمثال صدق!

بعد الكثير من الحروب الحوارية خضع أبي لرغبتي التي أتت بعد رياح غضب مني ومنه، فوافق على خالد...

كانت فرحتي بخطبتي لخالد تفوق الوصف، من جانب أني نلت من أحببت وأردت، وزادت نشوة الانتصار داخلي على فتيات دفعتي لأنّ خالد أصبح لي واختارني من بينهن، تباهيت بخالد وبهيئته وبشكله أمام كل غريب وقريب، تفاخرت بنظرات التمني والإعجاب لي لكل من رأوه بجانبي، أخذت من التباهي والتفاخر نصيبًا كبيرًا وقتها..

وكذلك كسرت تلك العُقدة المتمثلة في رفض أبي لكل اختياراتي وقراراتي ولو لمرة واحدة..

كانت خطبتنا سريعة لم تمتد إلا لسنة واحدة، فلم تكن المعرفة بيني وبين خالد هي محل تلك السنة بل انشغلت بفرحتي وبتفاخري..

لكن العمر يمر فتزداد بصيرة المرء وقدرته على الفهم والنضج ويتغير فيه ما لا يتخيل أنه يتغير؛ لأنّ حبي لخالد كان في سن صغيرة، فلم أكن حينها على نضج كافٍ يتيح لي معاني كثيرة من المعرفة الذاتية بنفسي أو المعرفة عن الحياة وعن اختيار الزوج..

فقضيت مدة الخطبة في فورة المشاعر فقط، ونسيت...

نسيت أن مدة الخطبة لم تكن لذلك مطلقًا، نسيت أن الهدف من الخطبة هي التماس أكان هذا الشريك المختار يناسبني – فعليًا - أم لا!

نسيت أنّ تلك المدة ما هي إلا اختبار لكلينا على تأهلنا الكامل لخوض تجربة الزواج أصلاً...

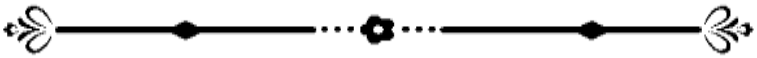

وللأسف المجتمع لا يعي ذلك أبدًا، لا يفهم سوى التأهيل المادي ولا يدرك شيئًا عن التأهيل النفسي والعقلي والإدراكي لتأهيل أسرة وبيت.. لا يفهم أنّ التأهل للزواج ليس قائمًا على التجهيزات والماديات وحدها..

كانت أفكاري ما هي إلا فرحة الخطبة والرجل الذي اخترته والفستان ذا اللون الأبيض الذي أحلم بارتدائه ويوم العرس الذي أنتظره كأي فتاة، لم أسعَ لفهم شيء عن أساسيات الزواج.. عن كيف لي أن أصبح زوجة ومن ثم أمًا!

عن كيف لي أن أدير منزلاً!

ما هي أهدافي أنا وخالد وهل متقاطعة أم متباعدة!

وهل عرفنا عيوب بعضنا البعض جيدًا واختبرنا مدى تحملنا لها وتأقلمنا عليها؟!

وما هي أهداف زواجنا من الأساس وكيف نعمل على إقامة منزل هادئ وراقٍ وصالح!

فتزوجت أنا وخالد ولكن سرعان ما اتضح لي حماقة ما كنت عليه من قبل!

فانتهت تلك العلاقة غير المتكافئة التي كانت قائمة على الإشباع العاطفي المرحلي بعد خمس سنوات فقط من الزواج..

تحملت فيها نتائج اختياري من بدايته، تحملت فيها سذاجة أفكاري عن الزواج وعن اختيار الشريك، تحملت فيها أهمَّ عيبٍ يُمكن أن يراود فكر الفتيات في سن الزواج وهو الاختيار المبني على الشكل والهيئة..

لعنت تلك الفكرة مئات المرات بعد زواجي من خالد واكتشاف ذلك الفخ العظيم!

وتذكرت حوارًا دار بيني وبين حبيبة يومًا ما، فلم أفهم مغزاه، فوضعني القدر في تجربة أخوضها بنفسي!

كان الفشل الأول والأخير في عقل ونفس خالد، أنا أزيد نضجًا وفكرًا مع مرور العمر وأحاول بكل الطرق تثقيف ذاتي من القراءة والمطالعة وتعلم أشياء جديدة والبحث عن عمل في مجال دراستي، وهو ما زال على وضعه، الفشل الدراسي والفشل الثقافي والمهني.. عانيت في اختلاف المستوى العلمي والثقافي والإدراكي معه معاناة ما بعدها معاناة.. أشياء اكتشفتها مؤخرًا بعد أن انتهت فورة المشاعر المضلة واستقرت الحياة..

الحبّ مهم للعلاقات لكن التفاهم والنضج وتقارب العقول أهم بكثير.. يا ليتني علمت هذا باكرًا!

زادت الخلافات كلما زادت الحياة من وضعي في قرارات واختبارات فألجأ لخالد فما يزيدني إلا حيرة.. أنا وحدي في مواجهة عواصف الحياة... وهو يلهو هنا وهناك!

أردت قائدًا لسفينة علاقتنا..

معنى القوامة كان غائبًا، وجدت نفسي أقود كل شيء دونه، وجدتني أصارع وحدي حتى غرقت تلك السفينة!

حتى الحوار بيننا كان دون هدف دون نفع.. لا أملك أن أتناقش معه حول أي موضوع مهم، وجدت السطحية والاعتيادية هما السائدين على عقله وتفكيره..

لا نقاش، لا أهداف، لا حوار مفيد أو نافع، حياتنا امتلأت بالرتابة والاعتياد والفتور الممل..

اكتشفت أني ظلمت نفسي في علاقة لا يوجد بها تطابق واحد بيني وبين طرفها الآخر، حاولت مئات المرات أن أجذبه لعالمي أن أغرس به حب التعمق في القراءة في مطالعة برامج ثقافية جديدة في أي شيء يغير تفكيره السطحي لكن النضج لا يُشترى..

هذا رزق إما أن تولد ناضجًا بفطرتك ويزداد هذا على مدار ازدياد عمرك.. وإما أن تكتسبه

بالتجارب والخبرات، وللأسف لا هذا ولا ذاك مر على خالد!

في كل مرة كنت أسمع منه ردًا يحمل سخرية واستهزاء كله غضب.

قال لي بنفور:

_سلمى أنتِ حبتيني على كده ووافقتي عليا برضو على كده، أنا مش هغير من نفسي علشان أي حد حتى لو كان الحد ده أنتِ، أنا عاجبني حياتي كده مش كل شوية هتقرفيني بضغطك عليا، أنا مبحبش الجو ده.

قُلت بيأس:

_بس أنا مش هقدر أكمل معاك بالوضع ده يا خالد،٣ سنين مع بعض استحملت كتير..

أنا مش هقدر أكمل معاك وأنت حتى مبتشتغلش ولا حتى بقيت تروح الكلية علشان تتخرج وكل اللي شاغل بالك هي خروجاتك وسهرك بليل.. أناقتك ومظهرك ومعرفش عنك أي حاجة لا بتروح فين ولا بتعمل إيه ولا حياتنا دي هتمشي إزاي بوضعك ده، ولحد الآن بتصرف عليا من فلوس أبوك، مش عارف ولا عايز تعتمد على نفسك، ولا تسيبني أنا حتى أشتغل وأشوف مستقبلي عايز تغمرني معاك في الفشل اللي أنت فيه طول عمرك.

قال بحدة:

_بقولك إيه هو أنتِ كنتِ تطولي أن راجل زيي يتجوزك ولا حتى يبصلك.. أنا مليون واحدة كانت تتمناني وتتمنى نظرة واحدة بس مني، وأظن أنتِ شاهدة من أيام الكلية.. وكانوا بيحبوني على وضعي ده اللي مش عاجبك..

لو أنتِ مش عاجبك الجو ده أوي كنتِ اختاري اللي زيك.. وأنا مكنتش هزعل في غيرك مليون واحدة تتمنى تكون معايا بكل عيوبي، وبالنسبة بقى لشغلك مفيش شغل طول مانتي عايشة معايا، مستقبل إيه وزفت إيه أنتِ ولا حاجة.. وملكيش دعوة أنا بصرف عليكي إزاي دي حاجة ترجعلي أنا ولو مش عاجبك أمشي في غيرك يتمنى يدخل حياتي من بكرة.. أنتِ

اخترتيني وأنتِ عارفة كل ده وكنتي ساكتة وراضية وموافقة، إيه بقي اللي استجد غير أنك عايزة تتحكمي فيا وبس.

قُلت بغضب:

_أنا فعلاً لازم أمشي لأني مش هقدر أعيش مع حد زيك مش عارفة هو عايز إيه وعايش من غير هدف وحياته سطحية وفارغة كده.. مش هقدر أعيش مع حد مش عارف يعني إيه هي الرجولة والقوامة، مش عارف يعني إيه مسؤولية، مش هقدر أعيش وأكمل مع حد بيغوص في الفشل كل يوم!

صفعني بقوة فسقطت أرضًا وواصل إلقاء السباب والشتائم ثم تركني وخرج..

حينها كنت قد عزمت على الطلاق دون أدنى تفكير.. ليس خالد بزوج يعرف قيمة الزواج والأسرة والاستقرار، أو كيف له أن يصبح كرجل يعرف معاني القوامة، كل ما يعنيه هو مظهره

وملابسه الفاخرة وخروجه ونزهاته وأن يظهر دائمًا بين أصدقائه في عز وفخر بنفسه وبأمواله الذي يحصل عليها من أبيه دون خجل!

لو رأيتِ هذا بسيطًا ولا يستحق بُعدي عن خالد، فكان من المحتم أن أبعد في كل مرة أجد نفسي بها أحل مشاكل ومصائب تقع في حياتنا من وراء سلبية تفكيره وتسرعه وطيشه وعدم نضجه..

ويظل أبواه في تدليله والدفاع عنه حتى أفسداه من طفولته فكبر على ذلك الوضع المشين، لم أجد أحدًا يقوّم سلوكه، يهذب طباعه أو يعينني على تحمله... وحدي أقوم بالحلول ووحده يفاقم المشاكل..

كل مصاعب حياتنا خُضتها وحدي وهو عليه فقط أن يهنأ بالحل وباستقرار الحياة.. لا مشاركة في أي شيء، هذا فقط – بالطبع – لا!

كل حديثه قائم على أنا وأنا وأنا.. التفاخر والتعاظم والغرور والكبر، كلما شعر بنجاحي في مجال عملي - الذي أكملت فيه رغم أنفه - شعر بمدى قدرتي على حل المشاكل وأن أنا من أقود تلك العلاقة وأقود البيت بكل ما فيه من مسؤولية ومسايرة الحياة والتغيير الذي يطرأ عليّ كل يوم من علم وثقافة ووعي يشعر بالنقص فيزداد تكبرًا وفخرًا بنفسه وبشكله وبجماله الزائف أمامي ليعوض ذلك النقص..

آه ماذا كان بوسعي أن أفعل وأنا أجد يده خالية من كل ذلك، تحملت كل المشاق من أجل نجاح العلاقة وللأسف لم يقدر هذا أيضًا.. تحملت وتحملت حتى تفاقمت المشاكل والخلافات بيننا، حتى ازداد الوضع سوءًا بيننا عندما زاد على كل هذا إهانته لي وضغطه بأن أترك عملي، رأيت عنفًا وهمجية وطبعًا قاسيًا لم أرَه من قبل، ما عدت أتحمل..

انتهى حُبّي لخالد يوم أن أدركت أنّ عقل المرء مغرٍ أكثر من شكله، وأنّ المرأة في النهاية تحبّ الرجل المسؤول أكثر من الوسيم..

كان أبي على حق قد رأى في خالد ما لم أرَه.. رأى سمات الشاب الطائش الذي أفسده الدلال فصار لا يعي قيمة أي شيء، لم تقسُ عليه الحياة ليتعلم ولم يخُض طرقًا شاقة في سبيل الزواج ليعرف قيمة الحياة الأسرية وقيمة الحفاظ عليها..

لم يمر بتجارب وخبرات تزيد من حكمته ووعيه.. كان داخله خاويًا وعقله سطحيًا.. حينها علمت أني لم أحبِبْه، بل أحببت شكله كما قالت أمي لي ذات يوم!

فأنهيت علاقة زواجنا دون أسف. وبدأت أشعر بالشفقة على كل فتاة يجذبها الشكل فقط وتسعى له بكل سذاجة، مسكينات هن وكنت منهن ودفعت ثمن هذه السذاجة!

الآن أصبحت لا أستطيع أن أخفي إعجابي بالأناقة العقلية لأي شخص، وأحدق بصاحبها مبتسمة كطفلة صغيرة تعلم أهمية ذلك جيدًا.. ثم سمحت لنفسي بالندم على عاصم.. ترك داخلي شعورًا يتغلغل كل يوم من جلسة واحدة...

يحدث أحيانًا أن ترى شخصًا لمرة واحدة ويترك بك أثرًا لا يزول!

كان شابًا من قلائل شباب العصر.. الشباب الذي باتت عقولهم تعاني من سوء التغذية!

واليوم أنا أتحرر من قضبان جهل خالد وجماله الزائف... وأعود للحياة ولعملي الذي رفضه رفضًا قاطعًا ومنعني عنه في الكثير من المرات بالحجج

والأعذار، لكنّني في الحقيقة كنت أعلم أنه لا يريد أن أنجح في أي شيء كي أصبح مرهونة به عاجزة عن التحرر منه، كي أصبح مثله لا قيمة لي، وألا تهتز ثقته بنفسه أكثر أمام إصراري على مواصلة سعيي ونجاحي في الحياة..

بعد أن تدربت على العمل في مكتب محاماة مع أحد المحامين الناجحين جدًا، أصبح لديّ مكتبي وعملي الخاص، أواصل به الدفاع عن كلّ حق أُخِذ بالباطل..

واليوم أصل للعدل في قضية موكلتي رقية في قضيتها التي تقع بها الكثير من النساء!

****

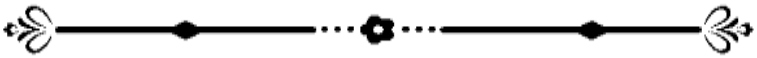

ملاحظة مجتمعية..

أولاً: الرجولة والقوامة تأتي في المقام الأول، ثمّ تأتي بعدها الوسامة العقلية ولا بأس بالوسامة الشكلية..

كانت القوامة هي المهمة الأكبر التي كُلّف بها الرجل من الله لمراعاة مسؤولية المرأة المادية والمعنوية..

مسؤولية شاقة خُلقوا لها وخلقت بهم المقومات التي تساعدهم على أداء تلك المسؤولية، حيث ميزهم الله بالقوة البدنية والنفسية، فكانوا أكثر منا جسمانيًا وأكثر عقلانيًا وأقل عاطفيًا، مؤهلين تمامًا لخوض الحياة بعزم أكبر منا.. فكلفهم الله برعايتنا وحمايتنا..

وكان في ذلك تكريم للنساء وعلوّ شأن للرجال.. لذلك كان من أهم أساسيات الرجل للقيام بالمسؤولية التي كُلّف بها هي أن يعمل في كفاح وطموح ليوفر للمرأة احتياجاتها المادية الأساسية دون إسراف في ذلك من جانب المرأة، وكذلك الرعاية الصحية والنفسية لها..

لذلك الرجل المسؤول بحق لا يضع نفسه وزوجته في وضع معاكس للطبيعة التي فطرهم الله عليها من معرفة واجب كليهما تجاه البعض..

الراجل الذي يعرف معنى القوامة والرجولة بحق لا يتهرب من المسؤولية لأنه يدرك جيدًا أن هذه مهمته وأنه أساس البيت ومن أهم أعمدته التي إن مالت فقد مال البيت بأكمله..

كما لا بأس بأن يعرف كلاهما واجباته وحقوقه وتسعى أيضًا الزوجة لمساعدة زوجها وتتكفل بجزء من المتطلبات المادية اللازمة إن رغبت هي في المساعدة وإن رضي هو على ذلك، دون ضغط من أي منهما لفعل هذا أو عدم فعله!

بشرط أن ترى الزوجة حقًا سعي زوجها في أن يكفل لها مستوى ماديًا مستقرًا بغير تلاعب في المحاولة!

كما لا يوجد امرأة تعرف قيمة نفسها وتملك استحقاقًا ذاتيًا أن تتقبل وترضى أن تبقى مع رجل لا يعرف معنى القوامة بأبسط أشكالها!

والجدير بالذكر أنّ لكلّ ذلك مؤشرات واضحة تظهر على أي رجل في بداية العلاقة تؤكد للمرأة مدى معرفة ذلك الرجل بواجباته ومدى سعيه وطموحه ومعرفته الجيدة بمسؤوليته وتضمن لها حياة متوازنة معلومة كل كافة بها..

القوامة في الرجل لا هي محل نقاش ولا موضع من مواضع الخلاف ولا لها أي باب من أبواب التفاوض، مهما بلغت عيوب الرجل لن تكون أكثر بشاعة من رجل لا يملك قوامة ويتنصل من مهمة حمّله الله لها...!

أهم من وجود الرجل في حياة المرأة هو وجود الرجل الحقيقي، والرجل الحقيقي أول ما يميزه هي القوامة..

وفي سياق هذا قال الرّافعي:

"فالرّجل قائدُ المَرأة لا سيّدها، والمَرأة تعيشُ في كنفِه، وليست أمَتَه، لم تكُن القضيَّة يومًا مَن يُسيطِر على مَن ولا مَن يلغي مَن! القضيَّة كانت دَومًا في أن يحنُو الكُلّ على جُزئِه، وأن يَحتمِي البعضُ بِكُلّه، وحين فطَر اللّه الرّجل ليكُون قوّامًا هَذا يعني أنه جعلَ المَرأة إحدى مَسؤوليَّاته لا إحدى مُمتلكاتِه، وحين فطَر المَرأة لتعِيش في كنفِ الرجل فلِأنهُ فطَرُهُ أولًا أن يُحب رقَّتها ويستعذِب لُجوءها إليه"

....

ثانيًا..

من أهم ما يجب أن تضعه الفتاة في مخيلتها عما ترغبه في زوجها المستقبلي أن يكون ذا خبرة وثقافة ونضج ووعي بالحياة أكثر منها أن تكون به حكمة عالية لمعالجة الأمور بتفكير سليم، لأنها عندما تتزوج تُسلّم نفسها وأحلامها وأولادها في يده، فليس من العقل أن تضع كل ذلك في يد شخص أضعف منها أو أقل منها في الفكر والثقافة والخبرات الحياتية..

الرجل الأكثر نُضجًا ووعيًا وتفقهًا في كل الأمور تضمن الفتاة معه الراحة بشكل أكبر، الرجل الذي يسبقها في كل شيء والأعلى معرفة منها تضمن الفتاة معه أن يكون على قدر كافٍ من تحمل المسؤولية، بغير أن يحملها

مشقات ليست من مسؤوليتها، دون أن تحمل همًا وتفكيرًا ليس من المفترض أن تحمله هي، فبذلك تضمن معه راحة أكثر من غيره..

ألا يضعها تحت مظلة التخطيط والتفكير الدائم لكل التفاصيل ومشقة التدبير..

الرجل الذي يملك عقلاً راجحاً يكفل للفتاة الأمان أكثر، لأنها بذلك تضمن أنه قادر على حل كل الأمور المعقدة بشكل يسير، ولأنه يملك قدرة كبيرة على حسن التصرف فحتى وإن لم يستطع حلها لكنها في الأخير ستبقى مطمئنة على أن وجوده كافٍ بتفكيره وجهده في إيجاد الحل، وأن نظرتها به كشخص ناضج ومسؤول ستبعث بداخلها الأمان..

وجود شخص كهذا يجعلها قادرة على الدخول معه في أي نقاش وتبادل معه الآراء، حتى وإن لم يتفقا واختلفا كثيرًا حينها ستكون أيضًا مطمئنة لأنها تُسلم زمام الأمور له وهي متأكدة من أنه شخص نادر إن أخطأ لأنّ لديه ميزتين تضمنا لها أن تخضع لرأيه دون قلق..

١_له مرجعية دينية تشمل كتاب اللّه وسنة نبيه

٢_يسعى دومًا لتثقيف ذاته ومعرفته فتثق في عقله ورجاحته فتخضع له حتى وإن لم تقتنع

فإن كانت خطواته وقراراته سليمة، فبذلك تثق به أكثر وإن لم تكن قرارات في النهاية سليمة لن تشعر بالخيبة أو تلجأ لإلقاء اللوم والعتاب

عليه لأنها – بالفعل - متأكدة من وعيه ونضجه وعندها إعجاب قوي بعقله وحكمته، فبذلك تعرف في قرارة نفسها بأنه بذل أقصى جهده..

.....

•في الزواج..

لا نتزوج المكافئ إنما نتزوج الكفء، والكفء لا يكون كذلك إلا إذا كان أعلى في النضج والفكر والخبرات الحياتية والأهم في معرفته القوية بمعنى القوامة..

والكفء هو بمعنى أنه الجدير بمشاركة الرحلة معه دون الإحساس بالضياع أو القلق، أما المكافئ فهو المتساوي أو المتعادل، ولأن الرجل بطبعه لا يتقبل النصح وتلقي التوجيهات إلا نادرًا، فبذلك يحدث الكثير من الاصطدامات والجدالات إن لم يكن هو النموذج الأعلى.. كل ذلك يندرج تحت بند معرفة الرجل للقوامة جيدًا وبأنه المسؤول الأول على الرعاية والحماية وتقويم زوجته في كل شيء دينيًا ودنيويًا؛ رغم أنّ المرأة دائمًا ترغب بأن تكون ذات شأن وقدر عالٍ أكثر من أي أحد لكن إلا زوجها، تُريده وتهواه ذا قدرٍ أعلى منها في كل شيء، لكون ذلك يدلل من فطرتها كأنثى ويعزز من فطرته كرجل في عينيها، لذلك عندما تختارين لا تتنازلي عن اختيارك لرجل يكون هو السيد والقائد لك.

اختاريه أعلى في دينه كي يقوّم عثراتك، حتى إذا ملتِ في يوم وتزعزعت عزيمتك أعاد قوتك في عبادتك من جديد.

اختاريه أعلى في ثقافته ولو بقدر بسيط عنكِ حتى لا تضطري يومًا أن تكتمي الكثير من الأسئلة في عقلك دون مشاركة عقل آخر بجوارك يفقه شيئًا وأنت لا تتمتعين بمجاراة حديث هادف معه، وبأن تبهت في عينك لمعة طيفه كبطل في حياتك..

أولًا وآخرًا لا تختاري رجلاً تتحملين عبء تهذيب عقله وخلقه وتقويم عباداته وتوضيح له مسؤولياته كل يوم..

اختاري من يشعرك بكونك أنثى تحتمي تحت ظل عرش ذاته الأقوى والأحن والأعقل.

....

ثالثًا..

أود توضيح أمر ما شديد الأهمية لمن يصممن على ذلك ويرددنه باستمرار، لعاشقات تفاصيل الشكل والمنظر والهيئة، الاهتمام بهذا جميل وحتمًا ضروري، ولكن الأجمل والأهم هو الذكاء الطبيعي الفطري أو حتى المكتسب بالبحث والمعرفة، يعني أن تلتقي شخصًا فتناقشيه في موضوع ما فتجديه يتناوله من أكثر من زاوية ومُلمًا بكل تفاصيله ومُدركًا لها، يعني أن تتناقشي معه لساعة أو أكثر في الموضوع ذاته دون أن تشعري بالملل والرتابة، لأنّ أسلوبه مميز ولبق وشيق، يأخذكِ إلى بقاع جديدة لم تحضري لها من قبل، أن تجديه ينصت لك ومتفهمًا لاختلاف الآراء، ويؤمن بفكرة أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، وأن -على الأقل- هذا الاختلاف

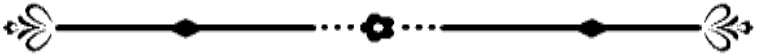

يضيف له معلومات جديدة ورؤية مختلفة ونظرة قد تكون صحيحة وهو لا يدري هذا من نطلق عليه مثقفًا بالتأكيد؛ العالم مليء بالحمقى أصحاب المظاهر الخارجية فقط، التاركين عقولهم يأكلها الفراغ، اكتفينا من هذا الجهل، نريد أن نرى عقولاً مشبعة بالمعرفة والوعي، نريد أن نجالس أناسًا يشتهون النقاشات الهادفة والأحاديث المثمرة لا التافهة، أناسًا تلتهب نيران الفضول للاطلاع والثقافة بداخلهم، عندما يصادفنا الزمن بهؤلاء سيصبح للوقت أهمية وللعمر ثمن وللحديث شغف..

اكتفينا من تزيين المظاهر بينما العقول يحتويها الخراب، الاهتمام بالعقل وتثقيفه وتحلّيه بآداب الحديث والحوار أهم من الالتفات بالمظهر.. ما نفع المرء إن كان جميل الشكل وعقله قبيح يعلوه الغبار!

العقول الناضجة مغرية..

العقول أكثر جذبًا دائمًا مهما اختلفنا على ذلك، فقبل ترتيب هندامك أبدأ بعقلك!

فقد صدق الأديب والشاعر مصطفى لطفي المنفلوطي حين قال: "المرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله، وبأدبه لا بثيابه"

****

القصة الثالثة.. «رُقية»

"عدو المرأة الحرّة ليس الذكر المتعالي فقط، بل عدوتها أيضًا المرأة الراضية بالعبودية"

_مريد البرغوثي

•أنا رقية.. فتاة في منتصف العشرين، يقولون بأنني جميلة جمالاً لافتاً، لكنّني لم أشعر يومًا بذلك الجمال!

نشأت في بيت لا يعرف الاستقرار أو الهدوء، الجو المشحون والبكاء والصراخ هو السائد في منزلنا، منذ أن كنت في السابعة من عمري وأنا لا أعرف عن الزواج سوى أنه مكيدة وأن الزوجة فريسة يأكُل من روحها الزوج كل يوم حتى تموت وهي على قيد الحياة، ورد الفعل الوحيد هو الخضوع والقبول والرضا التام دون أدنى اعتراض؛ كان أبي رجلاً لا يعرف عن المرأة غير أنها أَمَةٌ، يهين بها كيف يشاء، شتائم وصراخ وإهانة وضرب مبرح كل هذا وأمي لا تعترض، لا أرى منها غير البكاء والحزن الذي طغى على روحها منذ صغري أنا وإخوتي حتى كبرنا، كنا ثلاث فتيات تشوهت فكرة الزواج في عقولنا..

أتذكر ذلك الحديث الذي دار بيني وبين أمي بعد أن نالت منه قسطًا غير هين من اللكمات والضربات..

كانت تبكي بشدة بعد أن انزوت على نفسها في غرفتها، حينذاك كان عمري في السابعة..

اقتربت منها وربت على كتفها مواسية وقلت:

_ماما، هو بابا ليه دايمًا بيضربك كده، هو مش بيحبك؟!

قالت بصوت متحشرج من البكاء:

_لا يا رقية بيحبنا بس هو ده طبعة ودي أخلاقه، وأنا اتكتب عليا أعيش معاه وأستحمله كده.

قُلت مستفهمة:

_بس يا ماما اللي بيحب حد مش بيضربه ولا بيزعله كده مش خايف أنك تزعلي منه وتمشي وتسبيه؟!

قالت وهي تمسح دموعها:

_لا مش خايف يا رقية.

قُلت متسائلة بحيرة:

_لي يا ماما؟!

نظرت لي بقلة حيلة وقالت:

_علشان ضامن أني عمري ما هقدر أسيبه!

أكملت في تعجب:

_ولي متقدريش تسبيه وتمشي؟!

سقطت دموعها من جديد وهي تكتم شهقاتها وقالت:

_علشانكم يا رقية، علشان بناتي اللي بحبهم أكتر من نفسي وبخاف عليهم، أسيبكم لمين وأسيبكم إزاي.. مين هياخد باله منكم ويهتم بيكم..

قُلت بسرعة وكأني وجدت الحل:

_طب امشي وخدينا معاكي.

أمسكت يدي بحُب وقالت:

_وأروح فين.. مليش مكان غير هنا، اتحكم عليا أعيش وأكمل ومفيش حاجة مصبراني على كل ده غير وجودك أنتِ وأخواتك في حياتي..

•كان تكرار هذه الأسئلة مني دومًا لأمي على أمل أن أجد إجابات جديدة، لكن بعدما كبرت علمت أن حتى لو تمهدت كل وسائل النجاة لأمي من عنف أبي لظلت معه..

كان لدى أمي مفهوم مترسخ عن العلاقات وعن الرجل كزوج، هو يضرب ويهين ويأمر وهي تخضع وتنفذ وتستجيب، هذا ما قالته لي.. إنّ أباها وجدها وكل رجل عرفته كان هكذا فليس ذلك عليها بجديد، بل إنها تربت على هذا وأُمرت به عند خروجها من بيت أبيها وذهابها لبيت أبي..

"لا يوجد أي سبيل لرجوعك هنا ثانيةً حتى لو قطعك زوجك إلى أشلاء..."

كذلك في الكثير من المجتمعات كان أهون عليهم أن تعيش ابنتهم مهانة ولا أن تعيش بلقب المطلقة..

يقولون بأنّ أبغض الحلال عند الله الطلاق..

وماذا عن إهانة المرأة وتعذيبها أليس هذا أيضًا يبغضه الله؟!

يتأذون من كلمة مطلقة، ولا يتأذون من أذية ابنتهم..

لذلك كان ما تتعرض له أمي معتاد لها كنظرتها في الرجل وفي المرأة، ولا يوجد امرأة في تاريخ عائلتها كلها تجرأت وتمردت على ذلك.

الرجل كل شيء والمرأة لا شيء، هي نكرة بينهم!

لا يوجد كرامة، لا يوجد عزة نفس وبالتالي لا يوجد أي أساس لكلمة الطلاق كانت هذه الكلمة لا تنطق أبدًا بينهم، هي بمثابة قنبلة أو لغم!

فقضت أمي عمرها مع أبي في الإهانة والضرب، حتى أنّني أتذكر أنّه ضربها من قبل ضربة كسرت لها ذراعها من شدة قوتها..

ثمّ ماذا!

ثمّ أنها ذهبت لأهلها كاستراحة محارب فقط لمدة أسبوع وأعادوها إلى أبي من جديد وكأنّ شيئًا لم يكن..

لم يعرف أبي أو أهل أمي أبدًا أنّ المرأة وصية الرسول..

أو أنّه قال: "رفقًا بالقوارير"

أو "وما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم"

كل ذلك كان خارج حساباتهم..

ناهيك عن أكل ميراث النساء الشائع جدًا، المرأة لا حق لها في الميراث أبدًا، هي لا تتجرأ حتى على طلب حقها..

كانت أمي لها أخ يكبرها بخمسة أعوام، عندما مات أبوها وأمها، كان لأمي ميراث يقدر بخمسمائة ألف جنيه، لم تأخذ أمي منه إلا ما أشفق به عليها أخوها، عشرة آلاف جنيه فقط، لم يدفعهم حتى دفعة واحدة، بل أعطاها إياهم مقسمين على فترات، وأستحل لنفسه ما بقي من إرثها دون تأنيب ضمير ونسي شرع الله، فلم يطل كثيرًا غناه وافتقر بعقاب من الله على طغيانه وظلمه!

فكانت أمي رغم كل هذا تقدّر أهلها وتحبهم لكنهم لم يحبوها يومًا، لم يقدروها أو يساعدوها حتى في الحصول على عيشة هنية عند زوجها..

ويا حبذا أن يرى رجل مثل أبي أن أهل زوجته متخليين عنها هكذا، لا يهمهم أمرها أو كرامتها أو راحتها، فتصبح ضعيفةً في يده يمارس عليها عنفه ويستقوي عليها دون مراقب أو معارض..

تصبح المرأة عارية الروح والنفس إن تخلى عنها أهلها مصدر أمنها..

لا رقيب ولا حسيب وراء أي رجل هكذا إذًا زوجته لقمة جاهزة للطحن تحت أضراسه، وكذلك أي امرأة مثلها..

• لطالما تساءلت لو لم يأتِ حق أمي بأهلها ويعززون من شأنها من سيفعل هذا؟!

لو رأى أبي لمرة واحدة أنّ أمي خلفها أهل يقدرون ابنتهم ويخافون عليها، يحبونها بصدق لما فعل أبي ولا أي رجل هكذا..

إنما تخلي الآباء عن بناتهم هو بمكانة إعدام بغير حق!

كلما ذهبت أمي تحتمي بهم أعادوها إليه من جديد، فاعتادت الأمر وأصبحت تتحمل ما يفعل بها دون اللجوء لأهلها...

حينها فقط عذرت أمي وفكرها ووضعها كله، كبرت وفهمت مبررات أمي وراء مكوثها كل تلك السنوات مع أبي..

ومرت الأيام بنا وبها ولحقتنا الإهانة والضرب المبرح من أبي مثلها على حق وغير حق، لم نعرف ما هو حنان الأب، وكذلك تشوهت في أعيننا علاقات الزواج، ولم نرَ المودة والرحمة قط!

كل الجيران يدخلون بيتنا باستمرار لفك أمي من براثن أبي..

أحيانًا تلوذ أمي بالفرار وحدها جريًا بالشارع، وأحيانًا أخرى يتمكن أبي منها فلا تستطيع الخلاص منه إلا أن يتدخل أحد..

تعرضنا للكثير والكثير من الإهانات والفضائح التي قصمت ظهري أنا وأخواتي الفتيات..

امرأة وفتيات يتعرضن للإهانة يوميًا من سيحترمهن أو يقدرهن في المجتمع!

كلما احترمَ وقدّرَ الرجل زوجته وبناته كلما حازوا على تقدير واحترام المجتمع دون أدنى مجهود، وكلما حطّ من قدرهنّ واحترامهنّ كلما نقصت

قيمتهنّ وقدرهنّ وتعالى عليهنّ كل منقوص؛ فعشت أنا هذه الأجواء المدمرة لطفولتي ولنفسيتي، لم أشهد أبدًا أجواء الأسرة السوية المحبة..

• ومرت الأيام وبما أني كنت أكبر أخواتي، مع أول عريس قصد بيتنا وافقت على الفور!

الحقيقة أنّ أبي لم يأخذ رأيي أو موافقتي ولا يُعنيه هذا في شيء، إنما كل ما أهمه هو أن يتخلص من إحدى بناته، ولا أنا حتى كان لي الحق في الاعتراض، لكنّني على كل حال فرحت بهذا على أمل أنّ الفرار من هذا البيت قد اقترب..

أحيانًا من يتعرضون لظروف حياتي من الممكن أن يصابوا بفوبيا الزواج، إنما أنا كان كل همي أن أخرج من بيتنا وأنعم بالراحة في مكان آخر..

فأتى حسام ليخطبني فكان بمثابة النجاة لي هذا ما ظننته حينها!

• كانت خطبتي من حسام تعتبر أول فرحة تزورني بصدق، أحسست بالعوض وبأنّ ما فات من عمري مات وسأحيا من جديد، لم يكن بمقدوري أيضًا أن أخفي عليه ما يحدث في بيتي وما أمر به من أذى، كان من الطبيعي أن يفهم وأن يلاحظ وضعي ووضع أمي، كان عليه أن يلاحظ المعاملة العدوانية التي تصدر من أبي، وصوتي الحزين بعد كل مشكلة في البيت..

فحكيت له كل شيء في مكالمة كانت قد أتت بعد دوامة بكاء لمدة لا أعلمها وأنا في غرفتي..

وحين سمع صوتي علم أنّ هناك شيئًا ليس على ما يرام، فأصر عليّ أن أحكي فضعفت وحكيت له..

أنا أيضًا كنت في حاجة لتفريغ الضغط الذي يملؤني.. أنا التي لم يسمعني أحد من قبل!

كان ذلك في الأشهر الأولى من خطبتنا، كنت قد أحببت حسام حبًا هستيريًا، تعلق قلبي به إلى أبعد حد، ولمَ لا؟

كان هو أول حبّ في حياتي، عشت معه مشاعر لم أشعر بها من قبل، يسمعني ويسمع شكواي، يطمئنني والأهم يعطيني الأمل في الهروب من هذا البيت، الأمل الذي لا يستطيع الإنسان العيش بدونه.. لو انتهى أمله انتهى أجله!

فكان حسام بداية جديدة لأيامي ومصدر نجاتي!

فآمنت لحسام أشد الأمان، فحكيت له كل معاناتي مذ كنت صغيرة حتى الآن، حكيت له كل ما مررت به من أذى نفسيّ، على أمل أنّ بعلمه هذا يصبح مصدر أمان لي وأتعافى به عما عشته، ألا يكون مثل أبي، كنت أغششه ما أريد أن أشعر به معه، أساعده في معرفة ما يمكن به أن يمتلك قلبي..

والحق يقال كان يسمع جيدًا أو بالأحرى يخزن جيدًا...

بعد أن حكيت له كل ما عشته في سنوات عمري في بيتنا، كان كل رجائي أن أفرغ مكنون صدري من ألم نفسي..

قلت وأنا منهكة من الذكريات والبكاء:

_ أرجوك يا حسام تنتشلني من كل ده، متسبنيش أعاني تاني ولا توجع قلبي أنا مبقتش حِمل أذى تاني، خلصت كلّ طاقتي هنا مبقاش جوايا أي حاجة أكمل بيها وأعافر من جديد، أرجوك عوضني عن كل ده.. وغيرلي فكرتي عن الجواز ومتكونش أبدًا زي بابا في أي يوم، أنا خايفة أوي.. أوعدني تكون سند وراحة وونس ليا بعد كل الوحدة والهلاك النفسي اللي عشته.. أوعدني.

أتاني صوته بلطف يقول:

_أوعدك يا رُقية أوعدك أني هشيلك جوا قلبي وجوا عيوني..

أكملت وأنا أنثر آخر ما تبقى من آمالي له:

_أنا مش هقدر أتعذب تاني ولا أعيش نفس قصة حياة أمي من جديد، أنا عايزة أجرب معاك اللي مجربتهوش في بيت أهلي وهو الأمان.

تنهد بهدوء وقال:

_ربنا يقدرني يا رُقية وأقدر أسعدك دايمًا.

• ومن خلاف لخلاف وأنا أفرغ ما في جعبتي له أول بأول، إنها الفضفضة... وما هي إلا تخفيف حمولة الأعباء الثقيلة التي ترهق أرواحنا، لكنّها تتحول إلى جحيم عندما تكون للشخص الخاطئ!

كنت قد أحببت حسام حبًا يفوق الوصف والخيال، حتى أنني لم أتخيل أني يمكنني أن أحب بهذا الشكل..

لأنه كان أول حب وأصدق حب، جربت معه إحساس حب الأب وعاطفة الأم، مشاعر لم أشعر بها في بيتي..

كنت جائعة للعاطفة، متعطشة للاهتمام، قلة الثقة كانت متربعة داخل نفسي..

عوّض النقص الذي كنت أشعر به منذ طفولتي، لم أسمع كلمة غزل واحدة ولم أشعر بالدلال من أهلي.. فعوض هو كل ذلك!

فكان من الطبيعي أن يتحول حبّي له إلى تعلق مرضيّ..

وهو فهم ذلك واستغله أشد استغلال، لعب بمشاعري وروضني كيف يشاء، كنت مثل الصلصال في يده يشكلني كما يريد ولو حاولت الاعتراض هددني بتركي ورحيله من حياتي!

وانقلب حال حسام معي، على ما يستحق وما لا يستحق يغضب ويصرخ عليّ ويتعمد إهانتي بأسلوب غير مباشر، ولأنه يعلم أني أطيق الموت ولا أطيق بعده عني وضمن هذا فتعمد استخدام هذا كبطاقة تعذيب وتشتيت لي، كما ضمن أبي بقاء أمي ضمن حسام بقائي..

وقعت في الفخ نفسه دون أن أشعر..

أول ما تعلمته بعد ذلك أن أول أخطاء الفتاة مع خطيبها هي أن تخبره بنقاط ضعفها أو بمشاكل أسرتها و- خصوصًا - خلافات الأب والأم أو أنّها غير معززة ومكرمة عند أهلها وأي نقص داخل بيتها إن كُشِف له سيعتبر هذا أول هدف لصالحه!

ليست هذه قاعدة ثابتة، لكن الأكيد أنّها تستوجب الحذر ويفضل اتباعها لعدم ضمان أي شيء.. النفوس تتقلب!

قال لي ذات مرة في برود:

_رقية أنا زهقت مش عايز أكمل معاكِ..

قُلت في رجاء:

_ليه يا حسام أنا عملت أيه بس فهمني، أنا زعلتك في أيه قولي؟!

قال بغضب:

_هو كده وخلاص أنا زهقت ومبقتش قادر أكمل.. مش مبسوط مش مرتاح.

تجاهلت ما قاله وقُلت في محاولة مني لاستعطافه:

_بس أنا بحبك.

قال بنفور وملل:

_يا ست وأنا بقى مبحبكيش..

كان صوت بكائي وشهقاتي تزداد ويزداد معها قسوته وجفاؤه:

_ليه يا حسام بتقول كده أنا عارفة أنك بتكدب أنت بتحبني صح، حصل أيه بس أنا آسفة لو كنت زعلتك في أي حاجة.

صمت قليلاً قبل أن يُكمل:

_لا زعلتيني ولا مزعلتنيش أنا زهقت ومش مبسوط معاكي.

عاودت التساؤل مرة أخرى بلينٍ أكثر:

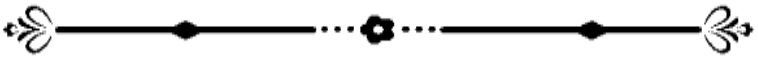

_طب فهمني في أيه أنا حاسة إن بقالك فترة متغير معايا.. وأنا متأكدة أني معملتش حاجة تزعلك..

قال بعصبية:

_أنا بجد مبقتش قادر أستحمل وجودك بقولك أيه اقفلي ده أنتِ باردة!

• أغلق الهاتف وتركني أتآكل حزنًا وخوفًا أن يتركني.

أستمِرُّ في الاتصال به وإرسال الرسائل ولا يرد، يمر يوم، يومان، وثلاثة وأحيانًا أسبوع..

أترجاه في كل رسالة وأمحو أي سبيل للكرامة أو الكبرياء.. كان حبي له وتعلقي به يعميني!

وعندما يعتدل مزاجه والفراغ يحط عليه يعود بكل شموخ ليرد على مكالماتي وكأنّ شيئًا لم يكن..

أطير فرحًا بعودته وأنسى ما كان منه..

يُرضيني بكلمة أو كلمتين وتعود العلاقة في استقرار مزيف..

ثمّ أسبوع أو أسبوعان ويبدأ في تكرار التهديد من جديد وأبدأ أنا في الخوف والبكاء!

وهكذا لا أتجرأ على قول كلمة لا على أي من قراراته وتوجيهاته، أقول سمعًا وطاعة!

• كنت أفرح بقدوم موعد الزواج لضمان إن لم يعد فرصة لتركه لي، رغم كثرة المشاكل!

كل يوم تهديد من جديد ومشكلة أكبر..

قال لي في حديث بيننا قبل الزواج بشهر:

_لا متطمنيش كده أنا برضو ممكن أسيبك في أي لحظة أنا مبيهمنيش لكن أنا هعمل فيكِ خير بس وانتشلك من الهم اللي أنتِ فيه ده!

وحتى لو مسبتكيش هتيجي بيتي زيك زي العفش اللي فيه وجودك زي عدمه..

و- كالعادة - يغلق الهاتف ويتركني!

كنت أضحك على نفسي بأنه غضب سريع ويزول والتأكيد على ذلك أنه يعود بعدها ليراضيني وبأن بعد الزواج والاستقرار سيزداد حبه وتمسكه بي سيكون الوضع غير ذلك!

كنت ساذجة وضعيفة الشخصية!

بدلاً من أن أصحو من هذا الوهم وأعتبر كل ذلك إشارة لي في البعد عنه، إشارة واضحة بأن حسام نسخة مصغرة من أبي، لكن لا، تمسكت به وجازفت في التأكيد على نفسي بأنه سيتغير!

وكما كنت أتمنى.. تزوجت أنا وحسام...

- بالفعل - في البداية الحياة كانت مثل ما تخيلت وظننت حبًا وسعادة واستقرارًا، لكنّ الطبع غلاب!

كان قد مر على زواجنا خمسة أعوام كنت قد أنجبت فيهم أول مولود لي أسميته سليم، ولكن إن كانت خلافات الخطبة كثيرة، فخلافات الزواج

أكثر للتقارب والتعامل المباشر اليومي، بالتأكيد لن يخلو من حدوث المشاكل!

وهنا بدأ حسام من جديد في تدميري الكلي!

كنت بعد كل مرة يتعدى عليّ فيها بالضرب أو بالإهانة اللفظية أستعتبه على وعده لي أن يكون أماني وعوضي عما عشته عند أبي لكن لا حياة لمن ينادي..

قُلت معاتبة إياه:

_ده وعدك ليا يا حسام، ده وعدك بإنك تحافظ عليا وتسعدني.. أنت مش بس طلعت زي بابا أنت طلعت أوحش منه..

أنت دمرتني ودمرت ثقتي في الناس كلها مش فيك أنت بس!

الحق عليا أني صدقتك ووثقت فيك وفي وعدك ليا..

نظر لي بعيون يملؤها الكُره وقال:

_بقولك أيه اخرسي بقى أنتِ أبشع اختيار اخترته في حياتي، وبندم كل يوم على معرفتك أنتِ وأهلك، وبندم أكتر أني كملت مع واحدة زيك معندهاش شخصية وغبية!

• كان حسام يرى حبي له غباء.. أحيانًا أشعر بأنه على حق!

الرجال يحبون المرأة القوية صاحبة الرأي والقرار، التي تعرف قيمة ذاتها ولها شأن بين الجميع وأولهم أهلها، تحظى بالحب والحنان منهم، لها عائلة محبة وداعمة وتساندها، لها ظهر تستند عليه..

امرأة لها كرامة وكبرياء، لا ينقصها شيء من مشاعر ثقتها بنفسها تكتمل به، بل هي مشبعة قبل مجيئه حتى!

يحبونها ويهابونها أيضًا، تجذبهم بقوتها وشموخها..

أما المرأة الضعيفة لا ينجذب لها إلا الرجل غير السوي فقط ليمارس عليها عنفه وقهره ويشبع نفسه في انكسارها ثم يذهب ويتركها..

أيًا كان حسام رجلًا سويًا أو لا!

يحب المرأة القوية أو الضعيفة المنكسرة، فعلى كل حال قد عرف نقطة ضعفي وعرف كيف يستغلها ضدي..

كنت أهرب من تفسير ومواجهة مشاعري الحقيقية، أتهرب من حقيقة أنّ حسام نسخة من أبي..

وكأني كنت أعاني من مرض نفسي، أردت أن أعيش حياتي مع أبي ثانيةً ولكن في هيئة رجل آخر وهو حسام على أمل أن يتغير أي شيء وتتغير الأحداث..

أردت أن أعيش مع حسام إحساسًا افتقدته مع أبي، فرأيت أنّ حسام هو أبي، ولكن بسيناريو جديد، لكنّه لم يختلف كثيرًا، ألغيت كل إشارات عقلي المُحذرة من أجل مشاعر حبّ افتقدتها وأردت عيشها مع حسام، لكن الحقيقة أنّ الأمان هو الأساس قبل أي مشاعر أخرى.

• بعد كل إهانة منه كنت أسترجع ذكريات الطفولة في بيت أبي، أرى نفسي مثل أمي بل وأضعف!

لطالما كانت الحنية واللين أهم صفة تتواجد في الرجل، وأنا افتقدتها في أبي وزوجي!

كنت أهرب من قسوة أبي لأبحث عن اللين والرفق، ولكن بضعف شخصيتي ومجازفتي في الصبر على حسام وقعت ثانية في القسوة، ولكن تلك المرة كانت أشد ألمًا لأن العشم والأمل في حسام كان أقوى؛ لجأت لأبي مئات المرات لينقذني من عنف حسام.. لكن هيهات هيهات، كيف لأب وزوج مثل أبي أن يرى حسام مخطئًا في أي من أفعاله المهينة لي!

قلت لأبي بترجٍ وأنا جالسة عند قدمه، رافعة رأسي له:

_بابا أرجوك أنا مش عايزة أرجع لحسام، أبوس إيدك مترجعنيش، حسام بيضربني وبيعذبني والله، أنا مش قادرة أعيش معاه وبقيت أخاف منه..

ثم أشرت بيدي لكل موضع في جسدي فيه أثر للضرب وقُلت:

_بص شوف الكدمات في وشي وجسمي أنا بتبهدل والله.

قال أبي في لا مبالاة:

_بقولك أيه يا رقية بطلي دلع وقومي لمي هدومك وروحي بيتك.

قُلت في انهيار وبكاء ورجاء:

_يا بابا أرجوك ارحمني، أنا مش عايزة أرجع.

قال أبي بنفاد صبر:

_خلاص ارتارحي يومين تلاتة وابقي روحي، وبعدين ما أنتِ أكيد اللي مزعلاه وتستاهلي الضرب..

هكذا كل مرة دون أن أحكي أو أن يسمعني يقرر أبي أنني المخطئة..
استجمعت أكبر قدر من الجرأة وقلت بصوت مبحوح من البكاء:
_لا يا بابا أنا مش عايزة أرجع تاني أنا!!.. أنا عايزة أطلق!
قال أبي في غضب:
_جرى أيه يا بت أنتِ هتتجنني ولا أيه.. لا بقولك أيه هو علشان أنا ساكتلك من بدري ومطاوعك لكن لا أنتِ متنفعش معاكي الطيبة..
أنتِ هتقومي تلمي هدومك وتروحي دلوقت، وبعدين ضرب إيه يعني هو أنتِ أول مرة تنضربي ده أنتِ شبعانة ضرب طول عمرك.. قال طلاق قال، كلت كام قلم بقت عايزة تطلق!
ردة فعل أبي لم تكن مفاجأة لي لذلك كنت قد حضّرت مسبقًا آخر أمل لي في النجاة.
مسحت دموعي وقلت بتحدٍ:
_بابا أنا لو مطلقتش من حسام ورجعتله أنا هنتحر..
قال بلا مبالاة وسخرية:
_ماشي أبقى غوري انتحري وريحينا يلا قومي امشي.
لم أعلم لما القسوة كانت هي عنوان حياتي هكذا، لم أشعر باللين والرفق مرة واحدة..
أخذتني أمي لغرفتي وجلست بجانبي وقالت بهدوء:

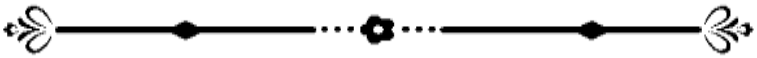

_رقية يا حبيبتي.. اصبري شوية على جوزك مانتي شيفاني أهو صابرة بقالي سنين على أبوكي، هي الست كده لازم تصبر وتتحمل عيوب جوزها.. وبعدين طلاق إيه اللي بتتكلمي فيه، احنا برضو عندنا الكلام ده!

التفت لها وقُلت بغضب:

_مهو صبرك وسكوتك ده يا ماما اللي بيموتك ويموتني كل يوم، كل ست صبرت وسكتت على

الإهانة والضرب هي السبب في كل ده، ولو مش اللي زينا هي اللي اتطلقت مين تطلق؟!

بعد كل الضرب والعذاب ده ولسه عيزانا نستحمل، لو أنتِ صبرتي علشاني أنا وأخواتي، فأنا معنديش استعداد أصبر معاه بالشكل ده علشان ابني يتربى على طباع أبوه لحد ما يبقى زيه، ولا يكبر وهو كل يوم عايش في إهانة هو وأمه لحد ما يبقى مريض نفسي وكله وجع زي اللي عشته، أنا مش هقدر أخلي ابني يعيش اللي أنا عشته!

دي مش تضحية علشانه.. ده أنا كده بضحي بنفسي وبيه علشان معتقدات كلها غلط..

الأطفال عايزين أم سعيدة وقوية مش أم مُضحية ومغلوبة!

ولو حتى أي ست معاها أطفال ده مش مبرر ولا سبب يخليها تستحمل وتصبر..

كفاية يا ماما إهانة وضرب وبُكى وعذاب كفاية أرجوكي.. ارحموني

مشوفتش في حياتي ولا يوم الحب والود، أنا مش هقدر أسكت تاني..
أنا حقيقي بكره بابا وحسام وأي راجل نسخة منهم.. مفكرين الرجولة بأنّهم يستقووا علينا!
قالت أمي بقلة حيلة:
_ يا رقية ارضي بنصيبك يا بنتي وعيشي، بكرة حسام يكبر ويعقل ويبطل يمد إيده عليكِ
قُلت بنبرة ساخرة:
_كان بابا بطّل من زمان يا ماما، اللي بيتعود على حاجة عمره ما هيبطلها، واللي اتعود يضرب مراته ويقسى عليها ويقل منها عمره ما هيحبها ويعززها ويحن عليها، واللي اطمن أن الست اللي معاه ملهاش أهل يوقفوه عند حدوده ويحموا بنتهم من عنفه وطيشه عمره ما هيخاف..
واللي عرف بجد أن الست اللي معاه ليها أهل سند وضهر هيخاف ألف مرة قبل ما يأذيها ويمد إيده عليها..
العيب مكنش في حسام يا ماما، العيب كان فيكي وفي بابا وفي اللي زرعتوه فيا من صُغري!
زفرت ببطء وقالت:
_يا رقية الرجالة كلهم طبعهم كده يا بنتي مش أبوكي وجوزك بس.

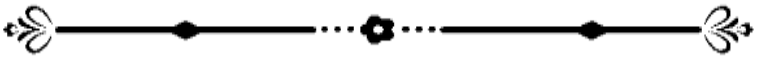

أومأت رأسي يمينًا ويسارًا نافية:

_لا يا ماما دي كدبة أنتِ ضحكتي بيها على نفسك من زمان، زي ما في راجل مفتري وميعرفش ربنا.. في راجل محترم يعرف تعاليم دينه ويعرف إزاي يعامل الست ويحترمها ويقدرها ويخاف عليها..

بس دي كدبة بتضحك بيها كل ست على نفسها علشان تريح ضميرها وتقنع نفسها بأنه ده الطبيعي والعادي وترتاح وتعيش زي ما بتقولي..

هتعيش آه بس هتكون من جواها ميتة..

لكن لا يا ماما في رجالة كتير محترمة وعارفة إيه اللي ربنا آمرها بيه من معاملة مع زوجاتهم..

وأنا أستحق أعيش مع راجل محترم يقدرني ويعززني..

أنا أستحق يا ماما وكل ست صانت جوزها وحفظته وراعته بما يرضي الله وعاملته بكل حب واحترام تستحق تتعامل في المقابل بكل حب واحترام..

أمسكت بيدي وربتت عليها قائلة:

_هتعملي أيه بس يا رقية ده نصيبك يا بنتي ارضي باللي قسمهولك ربنا.. صبرك على طباع زوجك هتدخلك الجنة.

تجمدت الدموع في عيني فقُلت بغضب:

_الصبر على أذى جوزي مش هيدخلني الجنة يا ماما ده هيدخلني مصحة نفسية..

وليه مكتوب عليا أرضى دايمًا بالإهانة والتعذيب، ليه مينفعش أعيش زي أي ست معروف قيمتها..

ليه أستحمل أعيش كده لما ممكن أغير حياتي، هعمل المستحيل وأحارب كل الظروف علشان بس أعيش العادي اللي المفروض تعيش فيه أي ست..

أنا مش هعيش في القالب اللي حطيتي نفسك فيه يا ماما..

لو هموت وأنا بحارب علشان أعيش بكرامة يبقى أفضل من أني أموت وأنا بتعذب وبتهان..

يا ريتني كنت صبرت على أذى أبويا ومكملتش مع حسام رغم معرفتي بأنه زي أبويا وأكتر..

يا ريتني كنت صبرت أهو المُر اللي أعرفه ومتعودة عليه أحسن من المُر اللي أنا فيه دلوقت!

•كان موقف أمي دائمًا سلبيًا لا أعلم أهي جربت من قبلي بما يكفي حتى أصابها القنوط من الفرار والنجاة واقتنعت بما يحاولون إقناعها به ففقدت المعرفة بقيمتها واستسلمت.. أم هي في الأصل لم تحاول ورضيت بما قسمته الحياة له من الأول وعاشت هكذا!

غادرت منزل أبي لا أستطيع قول منزلي لم يكن يومًا كذلك، بيت بُنيت جدرانه من القسوة والجفاء... لم أنتمِ له!

كان إيماني بالله ضعيفًا وحزني وإصراري على النجاة من حسام أقوى، لم أفكر في الانتحار يومًا في بيت أبي رغم المهانة والتعذيب والقهر الذي عشته..

لكن بعد أن عشت أضعافه مع حسام الذي كان آخر أمل لي في عيش حياة كريمة فكرت فيه

آلاف المرات؛ ومع أول خلاف بيني وبين حسام، بدأ في ضربي بقوة وعنف، كنت مستسلمة تمامًا أبكي في صمت، وعندما انتهى وأفرغ شحنات غضبه في جسمي المتهالك..

نظرت له وقلت بآخر عتاب في قلبي بينما الدموع تملأ عيني:

_كان نفسي مرة واحدة أكون غلطانة في حقك أو عاملة أي غلط يستاهل كل الإهانة والتعذيب ده.. كان نفسي مرة واحدة أكون أستحق الضرب علشان أصبر نفسي وأستحمل وأقول مهو حقك!!

لكن اللي قضى على آخر صبري معاك هو كل مرة بفتكر فيها كل محاولاتي لإرضائك وكل حبي وودي ليك ولسعادتك.. كل مرة ذللت من نفسي علشان أشوف في عينك بس نظرة رضا عليا..

لو بس عملت غلطة واحدة كنت هعيش معاك أستحمل ضرب وتعذيب العمر كله مقابل الغلطة دي.. لكن مفيش!

النهار ده بس أنا كرهتك وكرهت صبري عليك وكرهت نفسي يوم ما عرفتك..

لو أبويا مكنش ليا الحق في اختياره فبغبائي اخترتك وبتحمل نتيجة اختياري..

قال ببرود وهو ناظر لي بحقد:

_آه أنتِ معملتيش أي غلطة بس وجودك في حياتي هو اللي غلطة.. نفسي أشوفك ست زي أي ست، إنما أنتِ في نظري ولا حاجة.. ملكيش قيمة ولا عمر كان ليكي قيمة أصلاً عند حد، وعمري ما هحبك ولا هطيقك أبدًا.. مبتحسيش وملكيش كرامة أنتِ وأهلك.. نفسي أطلقك وأخلص منك بس أنا ساكت علشان أهلي اللي مش موافقين.. أهلي صحاب العز والكرامة اللي أهلك حتى ميستاهلوش يعيشوا خادمين تحت رجليهم..

بصق في وجهي بمنتهى التعالي وأكمل:

_أشوفك ست أزاي أنتِ نازلة من نظري من زمان، وبعدين إيه اللي رجعك تاني من آخر مرة أنا طردتك فيها من البيت مش قولتلك مترجعيش مش عايز أشوف وشك تاني.

نظرت له باستحقار وقُلت:

_يعني هو أنا اللي كنت عايزة أرجع أو أشوفك، لكن للأسف أبويا اللي رجعني ليك غصب عني.

قال باستهزاء وسُخرية:

_آه مهو علشان أبوكي معندهوش كرامة زيك بالظبط.

قلت بجرأة لم أعهدها في نفسي:

_ يا ريته يشوف قلة أدبك دي علشان ميرجعنيش تاني بجد.. ولو أنت مش شايفني ست بجد.. فأنا عمري ما هشوفك راجل!

• انقضّ عليّ ثانيةً يضرب ويركل بكل عنف، حاولت الفرار بكل قوة، كنت أفر من عنفه وضربه إلى الموت فكنت متأكدة أنّني سألاقيه على يده... ففررت للموت بنفسي وساعدته!

فقمت مسرعة متجهة لشرفة المنزل وقفزت منها دون وعي أو تفكير..

لم أتذكر أي شيء سوى صوته في مناداتي ومحاولة ملاحقتي وإمساكي..

ثم اسودت الدنيا في عيني مع أول لحظة من ارتطام جسدي بالأرض!

استيقظت بعد ثلاثة أيام في المشفى، يقولون بأنني كنت في غيبوبة..

لم أفكر في أي شيء عندما فتحت عيني غير أنني ما زلت حية، أنا أتنفس وأشعر وأرى...

إذًا أنا مازلت في كابوس أبي وزوجي!

كان جسدي متهالكًا تمامًا رغم أني قفزت من الطابق الأول..

لم أجد بجانبي أحدًا في الغرفة..

دقائق مرت حتى دخلت الدكتورة رنا التي تعرفت عليها حينها وهونت عليّ محنتي، حكت لي ما مررت به في الثلاثة أيام الماضية وكيف أتيت للمشفى..

"كان رأسك ينزف من قوة ارتطامك بالأرض ودخلتِ في غيبوبة مؤقتة"..

هذا ما قالته بغير استفاضة

نظرت لي بابتسامة ثم قالت في اهتمام:

_حمد لله على سلامتك.. حاسة بإيه؟!

أمسكت رأسي محاولة تخفيف الألم وقُلت:

_دوخة وصداع جامد أوي وجسمي بيوجعني

تأوهت من حركتي ففوجئت بالجبيرة في ساقي اليسار

اقتربت مني وساعدتني في تغيير جلستي ثم قالت:

_متقلقيش حاجة بسيطة إن شاء الله هتكوني كويسة براحة علشان رجلك مكسورة

قُلت متسائلة:

_أهلي فين؟!

قالت وهي تفحص رأسي:

_كانوا معاكي أول يوم.. مامتك بس اللي برا دلوقت، تحبي أدخلهالك؟!

أشحت بنظري وتذكرت ما حدث وقُلت:

_لا مش عايزة أشوف أي حد دلوقت!

انتهت من فحص رأسي وقالت وهي تبتعد:

_طيب أنا هسيبك ترتاحي شوية وبعد كده لازم تحكي اللي حصل لأني لازم أكتب تقرير بحالتك وإزاي وقعتي من البلكونة!

وجدتها فرصة للخلاص فقُلت:

_أنا عايزة أعمل بلاغ في جوزي.. أنا رميت نفسي من البلكونة علشان أهرب من ضربه..

أنا عايزة أطلق ومفيش قدامي غير الحل ده اللي يخلصني منه، أرجوكي ساعديني!

تغيرت ملامح وجهها إلى الدهشة..

فجلست على أقرب كرسي وقالت لي:

_ أنتِ كنت هتنتحري!

أنا توقعت صح؟! كنت حاسة خصوصًا من طريقة جوزك وقت ما وصلتي المستشفى!

ده غير علامات الضرب والكدمات اللي في جسمك وفي وشك..

احكيلي إيه اللي حصلك؟!

حكيت لها كل ما مررت به منذ علاقتي بحسام حتى تلك اللحظة التي قررت بها القفز من الشرفة ومغادرة الحياة.

قالت بلين وعطف:

_ الحمد لله أن ربنا كتبلك عمر جديد ونجاكي من الموتة دي..

أنتِ عارفة كنتِ هتعملي في نفسك إيه علشان حد ميستاهلش، عايزة تموتي نفسك وتخسري دينك علشان تخلصي من وجع الدنيا اللي مهما طال هيبقي زائل وتروحي لوجع الآخرة وتبقي ظلمتي نفسك بنفسك..

عارفة ربنا قال إيه في القرآن: "وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا"

هتخسري دينك ودنيتك وآخرتك علشان مين وليه؟

مهما كان حجم الألم اللي في حياتك ميدفعكيش أنك تظلمي نفسك بالشكل ده وتخسري رضا ربنا، مش هيبقى ظلم أهلك وزوجك وكمان تظلمي نفسك أنتِ كمان، كنتي الجئي لله قبل ما تفكري التفكير ده وتستسلمي لشيطانك، قوليله يا رب خلصني من الظلم وارحمني يا رحمن..

ده لو كل الأبواب اتقفلت في وشك باب الله عمره ما يتقفل، مهما كانت حجم مشكلتك وألمك ووجعك والظلم الواقع عليكِ ربنا أرحم بيكِ من كل البشر، تروحي لأعظم ذنب يحبه الشيطان علشان تبقى بتختمي حياتك بأبشع حدث ممكن يحصل فيها..

وكل ده لي علشان حد معرفش قيمتك، حد ميستاهلش دمعة واحدة من عيونك، لازم تكوني أقوى من كده علشان تقدري تتخطي مصاعب الحياة.. الحمد لله أن ربنا عطاكي فرصة جديدة رحمة من ربك ليكِ يمكن علشان عالم بمدى الآذى اللي اتعرضتيله فعطاكي الفرصة دي استغليها في الشكر لله والجئي إليه يحلهالك هو وبس!

•كُنت أسمع كلامها وأبكي كما لم أبكِ من قبل، لأني أيقنت مدى بشاعة ما كنت مقبلة عليه وعن خوفي لمجرد التخيل أني مُت على هذا الذنب وخسرت رحمة الله، ندمت وبكيت بحرقة..

قُلت لها بكل أسى:

_أنا تعبانة أوي، صدقيني مكنش في أيدي إلا الحل ده، عليا ضغط كبير من أهلي إني أرجعله وأعيش معاه، كنت بموت من الحزن والقهرة على نفسي كل يوم من قسوة أبويا وجوزي..

أنا مطلبتش المستحيل، طلبت أعيش بكرامة وحب ومودة، طلبت أجرب اللين والحنية مرة واحدة في حياتي.. اليأس قتل قلبي صدقيني يا دكتورة عمرك ما تحسي بتعبي ميحسش بيه غير اللي جربه وعاشه.

قاطعتني قائلة:

_ علاجك كله كان في اللجوء لله.

ربنا قال: "وَلَا تَيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوحِ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الكَٰفِرُونَ"

فمتربطيش ذنب انتحارك بتجربة مأساتك.. أمال الصبر على الابتلاءات ده ثوابه عظيم ليه!

طأطأت رأسي نادمة وقُلت:

_أنا عارفة أني غلطانة وندمانة والله بس حقيقي أنا تعبت ومبقاش قدامي حل دلوقت بعد ما ربنا كتبلي عمر جديد غير إني ألجأ لله أولاً ثم إني أعمل محضر في جوزي بضربه فيا وتساعديني بالتقرير ده أني أثبت كلامي.. ده بس اللي هيخليني أعرف أضغط عليه وعلى أهلي وأعرف أطلق..

هزت رأسها قائلة:

_إن شاء الله هتعرفي تطلقي وتتحرري من سجنك ده وتعيشي حياة كريمة.. وهساعدك تعملي المحضر..

ثم قالت وهي تنهض:

_أنا هسيبك ترتاحي دلوقت وهدخل مامتك تطمن عليكِ

• مر يومان آخران على وجودي في المشفى بعد أن أفقت من الغيبوبة المؤقتة..

تلقيت فيهما العلاج، علمت بأن قد أصابني ارتجاج في المخ من قوة السقوط وكان هذا سببًا في الغيبوبة وجُرِحَ رأسي بينما كُسِرت ساقي اليسار، حمدت الله أن لم يصَب ظهري بأي شيء فالإصابة به قادرة على شل الحركة!

كان الصداع لا يفارقني بسبب الارتجاج، فتناولت مسكنات بإشراف الطبيب مع الأدوية المخصصة؛ حضر أبي وأمي وأخواتي للاطمئنان عليّ، بينما غاب زوجي وأهله تمامًا عني وكأني لم أعنِ لهم شيئًا، فقط اكتفوا بالاتصال بأبي ومعرفة وضعي الحالي منه، لا للاطمئنان أو مساعدة أبي في مصاريف علاجي..

•ثم ساعدتني الطبيبة رنا على تحرير المحضر بتقرير من الطب الشرعي بالجروح والكدمات التي كانت تملأ جسدي..

وعرفتني أيضًا بالمحامية سلمى التي ساعدتني في إكمال الإجراءات القانونية للتصدي من عنف زوجي، وقد حررت المحضر ضد زوجي دون علم أبي..

كتب لي الدكتور على خروج من المشفى مع المتابعة والمداومة على العلاج..
وصلت بيتي وأنا من داخلي أقسم بكل يقين على عدم العودة له حتى لو كان قتلي في المرة القادمة على يد أبي!
حينما علم حسام بالمحضر الذي حررته ضده جنّ جنونه أتى للبيت هائجًا كالثور، فتحت له أمي بعدما كاد يكسر الباب..
حمدت الله أنّ أبي لم يكن في البيت، - بالطبع - الأمر لن يخفى عليه طويلاً، لكن أن تكون المواجهة مع أبي وحسام كل واحد على حِدة، هذا أرحم من أن تكن المواجهة معهما في الوقت ذاته..
قال بصراخ وبعصبية:
_شايفة بنتك عملت فيا إيه.. فين راجل البيت اللي بنته غفلته وماشية عاملة فيها هي الراجل وبتتصرف من دماغها..
قاطعته أمي بحدة:
_حسام وطي صوتك وادخل نتكلم بهدوء.
صاح من جديد بوعيد وتهديد:
_لا مبقاش في هدوء خلاص.. مش هي عايزة تطلق هطلقها بس بعد ما أندمها على عملتها السودة دي الأول، هي فيييين اطلعي يا رقية واجهيني.
قالت أمي بعتاب له:

_تطلع إيه بس هو أنت خليت فيها صحة تقوم تقف على رجليها أصلاً، ليه يا بني كده ليه اللي عملته في نفسك وفيها ده.. وصلتها ووصلت نفسك لطريق مفيش منه رجوع..

أكمل بالنبرة ذاتها التي تحمل التهديد والعنف:

_ولا يهمني أنا أعمل اللي عايزه، أنا راجل وليا كلمتي وعند كلمتي برضو لازم أخليها تندم على جرجرتي في الأقسام.. والله يا رقية لتشوفي مني ضعف اللي شوفتيه..

وليا كلام تاني خالص مع أبوكي.. عشان يبقى الحساب حسابين، هخليكي تتمني لو بس تعرفي ترجعيلي يوم واحد عشان تهربي من اللي أبوكي هيعمله فيكِ، وحتى لو رجعتي تبوسي جزمتي عشان أرجعك مش هرجعك!

•كنت قد أغلقت باب غرفتي عليّ جيدًا، أقف خلفه أبكي في صمت على نفسي وما وصلت إليه الأمور، لم يعد الخوف هو الإحساس الطاغي..

كنت قد تخليت من كل أحاسيس الخوف عندما نويت تحرير ذلك المحضر، فليحدث ما يحدث..

أن تصل لمرحلة اللا شعور واللا خوف وتصبح كل الأمور واحدة..

ماتت بداخلي دوافع الحياة والخوف من الخوف ذاته، أن أصارع في المواجهة والنجاة هو الطريق الوحيد، إما أن أموت وأنا أصارع مع أب لا يعرف الرحمة وزوج لا يعرف الحب وإما أن أموت بينهم وأنا راضية كل الرضا عما فعلته للتخلص من آذاهم..

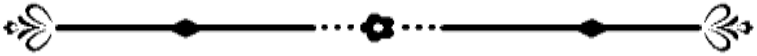

• بعد أن وجهه لي تهديده الذي يعرف تأثيره جيدًا.. رحل، دخلت أمي تهدئني لكنها على غير العادة وجدتني هادئة.. فقط أنتظر أبي ومواجهته التي لن تراعي جسدي المتهالك والتعب الذي عانيته في الأيام الماضية.

قالت أمي بعتاب وتأنيب ضمير:

_ليه يا رقية كده كبرتي الموضوع وهتدخلينا في مشاكل ملهاش آخر.. أنتِ عارفة أبوكي لما يعرف هيعمل فينا أيه!

وفي الآخر برضو هترجعي لحسام بس بعد ما أبوكي يذلك ويذلني معاكِ على اللي حصل، ووقتها ترجعي لحسام علشان يشمت فيكِ برجوعك ليه والله أعلم بقى هيقبل أصلاً يرجعك ولا لا.. ليه يا بنتي كده بس طالعة عنيدة لمين؟

قُلت بسخرية:

_قصدك طالعة عندي كرامة لمين!

ثمّ أكملت بجدية:

عايزاني أبقى عابدة زيك وزي كل ست في عيلتنا جوزها أهانها وقضى على كرامتها وكبريائها، عيزاني أموت من الحسرة والذل كل يوم، لا يا ماما أنا مكبرتش الموضوع هو كبير لوحده بس كبير باللي أنتوا عملتوه من الأول، على فكرة بابا وحسام وكل راجل زيهم مكنوش كده غير من سكوتنا وعجزنا ورضانا.. أحنا المشكلة.. كل ست رضيت بالعبودية هي المشكلة، وأنا هحل المشكلة دي وهاخد حقي حتى لو هموت وأنا باخده..

أموت بكرامتي ولا أموت على أيده!

أنتِ متخيلة أن أقل حقوقنا مأخدنهاش، أحنا مش بنطالب بمعجزة أحنا بنطالب بالود والحب

والاحترام والتقدير.. زي ما عاملناهم مشوفناش المعاملة دي منهم..

أيه الفرق بيني وبين أي ست متقدرة ومعروف قيمتها وجوزها بيحترمها

أيه الفرق بيني وبين الست اللي جوزها بيحتويها ويفهمها غلطها بكل حب وود

لكن أنا حتى من غير غلط كنت متهانة على الحق وغيره

للأسف أدركت ده متأخر، يمكن كنت لسه صغيرة ومعرفتش أني بقع في نفس اللي وقعوا فيه اللي قبلي، واخترت غلط!

لكن أنا هصلح اللي غلطت فيه.

الإنسان ممكن يعمل اللي ما يتعملش من غير مقابل، بس مستحيل يستمر فيه من غير تقدير..

كنت مستعدة أعيش مع حسام من غير ما يبادلني نفس حُبي ولهفتي ليه، لكن عمري ما هقدر أعيش معاه وكل اللي بعمله عشانه مش متقدر!

• مر الليل بساعاته الطويلة وأنا أنتظر مجيء أبي، الساعات تمر ثقيلة وأنا كل دقيقة أتخيل طرقاته على الباب..

كلما مرت ساعة كلما زاد خوفي..

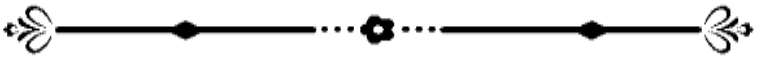

الانتظار قاتل، أن يأتي وتتم المواجهة وتنتهي أهون من الانتظار المحمل بالقلق، ساعة وراء ساعة، الوقت يمر حتى أصبحنا بعد منتصف الليل، هنا دق الهاتف معلنًا عن آخر خبر كنا نتخيله، أبي تعرض لحادث سير أثناء رجوعه للبيت ودخل على إثره المشفى!

لكن قبل أن نصل له كان قد فارق الحياة..

مات أبي...

لم ينزل الخبر عليّ كالصاعقة مثل أي فتاة يقال لها أبوكِ قد مات..

إنها المفاجأة فقط أخذت مني حظها، لكن صدمة الحزن والفراق والانهيار لم تأتِ أبدًا، حاولت البكاء لكن لم تُجدِ المحاولة نفعًا.. حاولت كثيرًا تذكر أي شيء له يجعلني أبكي أو أحزن كأي فتاة لكن لم أتذكر أي شيء، كلما حاولت أتت ذكريات إهانته لي ولأخواتي وأمي، العنف والشتائم.. الضرب والإهانة والفضائح التي كانت الضيف الوحيد الذي يزورنا!

كلما حاولت تذكر أي شيء من معاملته لنا أو وجوده كأبٍ حنونٍ لم أجد!

صور الإهانة والتعذيب لم تفارق مخيلتي فرحمت حالي وتوقفت عن التذكر..

كيف لتلك الذكريات أن تزورني الآن وقت وفاته!

أهي القسوة قد خلّفها أبي لي؟!

ترك لي قسوة وجفاء، لم تزل حتى بموته..

الغريب أن أمي بكيت بكاء شديدًا على أبي..

لم أجد مبررًا لها إلا أنه بكاء الفراق والتعود أو من وجهة نظر أمي وكل امرأة مثلها تعتاد العيش في كنف رجل..

هي لا تعرف كيفية التأقلم والتعايش دون رجل تحتمي به، حتى لو كانت في الأصل تحتاج أن تحتمي منه أولاً.

مرت أيام العزاء ثقيلة...

بكيت بها بعد أن اكتشفت أنّ أبي مات قبل موته بسنوات، مات داخلي دون أن أدري، بكيت على أني عيشت يتيمة قبل ذلك..

إحساس اليتم لم يكن عليّ بجديد، في الطبيعي والمعتاد حين يموت الأب تشعر الابنة أنها لن يصبح لها سند، لكن متى كان أبي سندًا قبل ذلك حتى أشعر الآن أن السند قد مات!

•بعد أن تخطينا أيام وفاة أبي..

صممت أمي على أن أعود لزوجي بحجة أن المجتمع لن يرحم امرأتين، إحداهما أرملة والأخرى مطلقة...

فعلى الأقل تصبح إحدانا في ذمة رجل، لكنّني أبيت العودة له..

لكن ما لم أكن أتخيله هو أن يعود حسام لي مطأطأ الرأس نادمًا على ما فعل يرجو مني العودة والسماح، كان هذا أشبه بالخيال، أحسست بشيء ليس على ما يرام شككت في الأمر، أيعقل؟!

لكني كنت على قراري، فقلت له بملامح جامدة:

_مش هينفع يا حسام أنت خسرت كل الفرص اللي كانت جوايا ليك، خلصت كل طاقة الحب اللي كانت جوايا ليك، اللي أنت معرفتش قيمتها أبدًا ولا عمرك هتلاقي نص حبي ليك مع أي ست تانية.

قال بتودد مصطنع ولين زائف:

_تعالي نحاول تاني يا رُقية.. المرادي هتغير، أنا خلاص عرفت قيمتك، صدقيني أنا لسه عايزك..

قلت بكل اقتناع ناظرة لعينيه:

_في حاجات لازم علشان نعرف درجة قوتها بنكسرها.. وحاجات في إيدينا عشان نعرف إننا عايزينها بنخسرها..

مش كنت عايز تشوفني ست قوية ليها كرامة وشأن أهو هتشوفها بس بعد ما تكون خسرتها.

قبض على ذراعي بقوة، ثم قال وعيناه توحيان بالغدر:

_يعني ده آخر كلام عندك.. تمام أوي يبقى أنا كان عندي حق أني أكمل في اللي نويت عليه..

وطلاق مش هتطلقي وهفضل معلقك كده لحد ما تيجي زاحفة لحد عندي..

وأنا غلطان أني عملتلك قيمة ورجعت أكلمك باحترام بس الظاهر أن ده مينفعش معاكِ.. وأنا كده مش ندمان على كل مرة دوست عليكِ فيها!

• ثم قام في سرعة وهجم على ولدي سليم وأخذه وأسرع نحو باب المنزل مهرولاً، فقفزت مسرعة خلفه لتحرير ابني من بين يديه، لكن بسبب كسر قدمي كانت حركتي بطيئة مقارنةً به فلم أتمكن من استعادة ابني، فحاولت أكثر وكذلك أمي، لكنه قام بدفعنا بعيدًا فسقطت أرضًا لم أتمكن من القيام ثانيةً، ركضت أمي خلفه، لكنّه كان قد تمكن من الفرار على درج البيت خارجًا للشارع، لم أعلم ماذا أفعل حينها صرخت وبكيت بكل حُرقة، كان صوت صراخ سليم جزءًا من صراخي وانهياري..

الآن تيقنت بداخلي على أنني كنت على حق هذا ليس من الطبيعي أن يأتي حسام لي يرجو عودتي وسماحي..

أنا أعرفه جيدًا وأعرف أنه لن يتغير أبدًا، فحمدت الله على ثباتي ومعرفتي جيدًا بنواياه، هو فقط علم ما أنا قادرة على فعله وكيف لي أن أرد حقي منه بالقانون..

جرب أخيرًا أن يكون ضعيفًا حائرًا مثلي تمامًا، بعد أن تمكنت من السيطرة عليه بالمحضر الذي حررته ضده والذي به يمكنني الطلاق بكل سهولة لاعتدائه عليّ وصعوبة العيش معه؛ لكن لم أتخيل أنه سيختطف ابني مني بكل تلك الهمجية..

رأيت الخوف باديًا عليه من أن أحصل على مستحقاتي كاملة، كان يريد عودة الأمور كلها بعدما علم ما هو مقدم على خسارته..

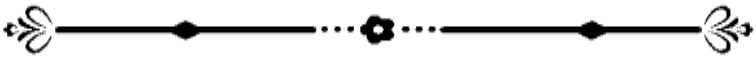

لم يتخيل هو فكرة أنني الآن قادرة بعد كل ذلك الضعف، أراد عودتي لجحيمه من جديد فتصنع اللين...

•أن أعود له! ولمَ أعود؟

مات أبي الذي كنت أراه السبب الوحيد القادر على عودتي لحسام من جديد، ومع ذلك كنت أُفضل الموت على العودة له، والآن لم يعد هناك أي أسباب لتغيير قراري..

لم يعد في مقدوري الانحدار بكرامتي أكثر من ذلك..

المجتمع الذي ما زال يهين المرأة ويعاملها على كونها نكرة ومادة خام ممتازة لتفريغ شحنات الغضب وممارسة كل وسائل العنف عليها..

هو ذلك المجتمع الذي ينبهر بالمرأة القوية التي تعرف قيمة ذاتها.. مجتمع متناقض!

لكن الأمل مازال يبعث من آفاق الألم.. لكل امرأة هُدر حقها وعانت من القسوة والعنف..

سبقونا نساء عرفوا كيف يجلبون الحقوق لأصحابها..

وفي وطن أقام حقوق المرأة التي سُلبت منها من جديد بعد قرون من الجهل بقيمتها، رُفِع فيه الظلم عن كل امرأة عانت من ظلم وعنف أي رجل، قوانين وأنظمة ساعدت من هم مثلي وأكثر..

حتى تأمين حقوق معيشتهم دون أن يصبحوا عائلًا على أحد..

وطن أصبحت فيه المرأة قائدًا ولها شأن عظيم، وطن عرف فيه ما هو تقدير النساء وقُهِر فيه كل رجل ظن أنه قادر على قهرها ظلمًا وطغيانًا..

وطن قهر أشباه الرجال!

بعد العديد من السنوات التي قُهِرت بها المرأة جاء نظام رفع من قدرها في كل الأحوال المحيطة بها!

فلجأت للقانون ورفعت قضية طلاق للضرر وأثبت ذلك بالشهود وبالتقرير الطبي الذي حصلت عليه من المشفى في حينها وقدمت به المحضر وبذلك تم الاستناد عليه في الدعوى..

فتم الطلاق بيني وبين حسام وبذلك أخذت جميع مستحقاتي بغير أن أعاني من التشتيت والضياع مرة أخرى، وساعدتني المحامية أن يكون لي الحق في حضانة سليم والحكم بالنفقة وكل شيء يخصني ويخص ولدي، وتحررت أخيرًا من سجن عنفه وإذلاله، لكن لم أتحرر يومًا من سجن ذكريات أبي وقسوته، الذي يعانيه الطفل منذ نشأته يُطبع بداخله ويصعب التخلص منه ولو بعد عمر!

انتهت تجربتي التي تعلمت منها أنّ الله عزيز كريم لا يقبل الضيم ولا الظلم تحت أي مسمى ومن أي شخص.. وأنّ حبي لحسام لم يكن حبًا، بل نوع من استعذاب العذاب والتلذذ به بسبب رواسب حياتي السابقة في بيت

أبي، وإن كان استمر هذا الزواج كان سيخرج لي ابنًا مشوهًا نفسيًا مثلي وعنيفًا مثل أبيه تمامًا، ولا يعرف قيمة المرأة مثل أبي..

أهم ما علمته أنّ على المرأة ألا تتقبل الإهانة في سبيل الحفاظ على علاقة زواج، إن كان الله قد أكرمنا فمن هم حتى يتعمدوا إنقاص شأننا!

علمت أنّ خذلان العائلة وفقد الأمان بها لا يعوض ولو بألف علاقة أخرى!

وبأنّ الفتاة المصانة في بيت أبيها لا تضام خارجه.. وازددتُ يقينًا بأنّ العائلة التي خلقك الله بينها ونشأت فيها هي قدرك، لكن العائلة التي تسعى لإنشائها هي مهمتك ومسؤوليتك...

تعلمت أنّ المعتقدات التراثية النرجسية التي تُحرض على قبول أذى الزوج لا بد من انتهائه ونسفه..

• صممت وحاولت إقناع أمي أن ننتقل من بيتنا بعد وفاة أبي وطلاقي...

لم أعد أستطيع العيش أكثر في بيتنا المليء بذكريات التعاسة والقسوة، كل ركن به يذكرني بما لا أقوى على نسيانه..

أشعر أنّ الجدران نفسها تحكي لي عما عشته أنا هنا كل يوم.. فأقنعت أمي أن ننتقل لمكان آخر نبدأ به بداية جديدة.. بذكريات جديدة، مكان جديد لا أحد به يعرف أيام عمرنا المريرة أو ذكرياتنا القاسية..

مكان يحمل لنا التقدير كنساء لم يتعرضن للإهانة أبدًا!

جيران جدد لم يروا ما فينا من نقطة ضعف كما تعرضنا في منزلنا القديم!

و- بالفعل - انتقلنا لمنزل أنيق في مكان بعيد..

وهناك تعرفت على جارتي هناء التي تبلغ من العمر أربعين عامًا، والتي كانت لقصتها معنى آخر من معاني نقص الوعي في زمن اللا وعي!

****

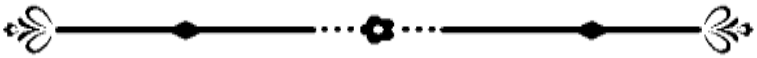

ملاحظة مجتمعية 2..

أولاً..

ذلك الصوت الصادر عن باب المنزل أثناء فتحه بالمفتاح، تلك التكة الصغيرة التي تسمعها المرأة عند دخول زوجها، إما أن تكون بمثابة أمان أو بمثابة اختلال لنفسيتها..

أن تقول إحداهن: "أختنق عند اقتراب موعد وصوله"

وتقول أخرى: "أشعر بتعب يسري في جسدي كُله ويزداد ألم معدتي من القلق بدخوله للبيت"

بينما تقول امرأة ثالثة: "عندما يصل للبيت أفقد الإحساس بالآدمية، حين يكون بالخارج أشعر أنني إنسانة ومع قدومه أتمنى الموت، خطواته تُذكرني بعشماوي"!

تجارب مأساوية تعكس مدى افتقار معظم النساء للأمان، تقضي على حبهن لأنفسهن..

بينما في المقابل هناك امرأة تنتظر على شوق رجوع زوجها، تتمنى لو أن تنطوي الساعات في لحظات وتنعم برؤيته..

هو فارق عظيم وشاسع ما بينهن وبينها!

والحقيقة أنّ الرجل حين يُهين زوجته فقد بادر بذلك في إهانة نفسه أولاً.. فهي منه ولهُ!

• فالحب كل الحب في الطبع اللين، وإنّ الحنية هي أعظم نقاط القوة في الرجل..

الرجل القوي الذي يعرف أن قوته لحمايتك لا لإخافتك وكسرك!

....

ثانيًا..

من أعظم جرائم القسوة وتحطيم مشاعر الفتاة وقهرها وتدني قدرها أمام زوجها تتمثل في عدم مساندة أهلها لها في التصدي من عنفه بها، بكل أنواع وصور الإذلال وليس العنف الجسدي فقط..

إنما عدم تواجد الاحترام والتقدير والامتنان بدون وجه حق تستحق أن تجد أهلًا يقفون لذلك الزوج غير السوي يردعون أفعاله المشينة

إن تم تغيير مسار أفعاله وتغير سلوكه نكون قد وصلنا لوجهتنا، وإن لم يكن فلا بد من رادع قوي ورد فعل واضح للحفاظ على السلامة الجسدية أو حتى النفسية لتلك الزوجة، فكم رأينا من جرائم انتحار لفتيات في مقتبل عمرهن وزهرة شبابهن، تم قهرهن وتعنيفهن من قِبل أزواجهن وحين لجؤوا لأهلهن لم يجدن غير التكتم والتخويف والمزيد من التعنيف لمسايرة الحياة دون الالتفات لما يعانينه من تعب نفسي صارخ..

قضايا انتحار تلك الفتيات كثيرة..

منهم من ألقت بنفسها من الشرفة، وأخرى تناولت ذلك القُرص المميت المستخدم كمبيدات زراعية، ومنهم من أشعلت النار بنفسها..

والقصص كثيرة جدًا لا يفيق منها الأهل بشعور الندم إلا بعد فوات الأوان..

....

ثالثًا..

يقولون: "كلما زاد جمال المرأة زاد غباؤها"

لطالما سمعت تلك المقولة الشهيرة، كان يُحيط بي سؤال هل جمال المرأة مرتبط بالغباء؟!

هل بتلك المقولة يتم إثبات أنّ الجميلات غبيات، وأنّ المبدعات والناجحات والقياديات جمالهن متواضع؟!

سعيتُ جاهدة لتفسير المغزى من تلك المقولة التي علمت فيما بعد أنّها مقولة ساذجة وزائفة..

لقد علمت من باطن المقولة أنّ الظنّ الشامل لها بأنّ المرأة الجميلة تنفتح لها أبواب الحبّ والزواج سريعًا فتنشغل بهما عن تطوير ذاتها وتحقيق أهدافها ونجاحتها العملية بينما المرأة متواضعة الجمال لا تنفتح لها تلك الأبواب سريعًا، فتنشغل بأشياء أخرى تثبت بها ذاتها، حتى في كثير من السيناريوهات العبثية تجدهم يُصورون الفتاة الناجحة بثياب قديمة أو

عدم اهتمام بالمظهر الخارجي بينما الفتاة الجميلة فاشلة ضائعة في بحر العلم لا تفقه شيئًا..

هكذا تم تصوير المرأة دائمًا فاقدة لمعيار من معايير الحُسن والكمال والفطنة.. محصورة بين أن تُصنف من الجميلات لكن أيضًا من الغبيات أو من الذكيات ولكن من متوسطات الجمال..

المهم أن يجعلوها منقوصة مهما عملت وصنعت من أجل إثبات عكس ذلك ونفي التهمة عن نفسها، لو خضعنا للمقولة سنجد أن لو حتى صدقت، تصدق بنحو ١٪ على أعلى تقدير لكن لا يجوز معها مبدأ التعميم، لأنّ ليست تلك عوامل تتحكم في شأن المرأة الناضجة، فالمجتمع مليء بنماذج النساء الجميلات والذكيات في آنٍ واحد، بينما هناك نساء أخريات لم يسعين وراء أحلامهن وطموحاتهن ونجاحهن، بل ظلوا على حالهن أعوامًا عديدة..

الفرق هنا هو عزيمة المرأة وراء التمكن من أحلامها ونجاحها وليس للجمال شأن في ذلك..

من الممكن أن تجمع المرأة بين الجمال والذكاء ولكن لا تتوافر بداخلها العزيمة لصنع أي نجاح فتظل مهمشة في المجتمع، وكذلك من الممكن أن تحارب المرأة للظروف وتتناقص العوامل التي توفر النجاح ولكن تتعاظم العزيمة بداخلها لصُنع مجد تطمح له نساء كثيرات..

لكنها عملت بأقل إمكانيات من الذكاء أن تطور من ذاتها وتثقفها وتُغلغل العلم بداخلها، فأصبحت تجمع ما لم تجمعه المرأة الذكية دون عزيمة ووعي..

فليست الفكرة محصورة في أن تكون المرأة إما جميلة أو ذكية تفوز بصفة واحدة دون الأخرى.. لا، تستطيع أن تكون الاثنين في الوقت ذاته ولكن بالمثابرة والسعي؛ بالإضافة إلى ذلك..

لماذا ينظر المجتمع للمرأة التي تزوجت وأنجبت دون السعي وراء الأحلام العملية على أنها امرأة فاشلة..

إنّ من أعظم مشاريع المرأة على الإطلاق أن تُنجب أطفالًا ملتزمين بأوامر الله أسوياء العقل والنفس والبدن، لماذا يُهمش ذلك الإنجاز العظيم في حق كل امرأة تحمل لقب أم مع مرتبة الشرف..

تحديدًا في هذا الزمان، المرأة التي تعرف كيف تصنعُ جيلاً قوي العقيدة والفكر ومثقفًا ومُطلعًا فإنها بلا شك امرأة ناجحة ولديها عزيمة واضحة..

فارتباط نجاح المرأة كزوجة بضعفها أو قلة علمها ارتباط سخيف!

من الجدير بالذكر أيضًا وأود توضيحه.. رُغم أني تماشيت في الأسطر السابقة مع مفهوم المجتمع لتصنيف النساء في الجمال..

هناك سؤال آخر حائر ومستفز!

مَنْ الذي أطلق معايير للجمال تصنف هذه المرأة جميلة، وهذه متوسطة، وهذه لا تحمل من الجمال شيئًا؟!

مَنْ الذي سوّلت له نفسه على أن يضع مقاييس للجمال يتم بها خلط السمات لتبقى صورة واحدة متكررة ومملة عن المرأة.

من أعظم أفكار مجتمعنا الخطأ هي التصنيف الشكلي.. لكل امرأة جمال وجاذبية لا تمتلكها الأخرى، لكلٍ منا جمال ظاهري يختلف.. يجعلها ملكة على عرش الأنوثة بذاتها لا مقارنة لها مع أحد.

هذه تمتلك عيونًا بُنية تتعامد عليها الشمس فتجعل القلب يرق، وهذه لها عيون زرقاء كزرقة البحر الهائج النظر له غرق، وهذه لها شعر أسود كسواد الفجر طويل كطول ليل الشتاء، وهذه تمتلك غمازات في كلتا الوجنتين تضحك فتضحك الروح بالنظر لها، وهذه لها شامة كمثل مصابيح الشوارع ليلاً تدل التائهين..

وتلك سمارها لافت براق وفاتن.. وغير ذلك الكثير من التفاصيل الخاطفة لكل امرأة لها صفاتها الخاصة المربكة في الوصف..

ناهيك عن الجمال الباطني والروحي الذي يُميز كل واحدة عن الأخريات..

فالقبح لم يُخلق لبنات حواء.. فلسفة الجمال عميقة يمتزج فيها الشكل بالجوهر وأسرار أخرى، ولا قبح إلا في الأرواح!

إذًا فالاستنتاج الأخير أنّ كل النساء جميلات والذكاء شيءٌ نسبي يختلف من امرأة لأخرى، ويندرج تحت أرزاق الله المقسومة لكل إنسان ولكن لا يتحكم في النجاح.. ولا علاقة للنجاح والفشل بالشكل أو الجمال..

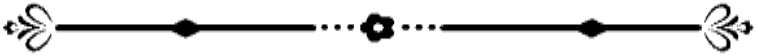

المرأة هي من تتحكم في نجاحها بأقل إمكانيات عندها إن امتلكت العزيمة والإصرار والسعي وراء تنمية ذكائها وفطنتها وتثقيف ذاتها.. وهذا واجب عليها في كُل الأحوال.

إذًا جمال المرأة شيء مضمون وجمال عقلها وثقافتها شيء من الممكن اكتسابه..

فعلى كل امرأة أن تسعى لذلك.. فالمرأة على كل حال جميلة إنما الجميلة والذكية كنز..

فإياكِ أن تكوني امرأة جميلة بلا ذكاء وثقافة وطموح وثقة وروح مزهرة..

كذلك سُئلت أفنان الجعر..

ما معيار جمال الفتاة؟

فأجابت: معرفتها بقيمتها وجدواها..

هذا المعيار إذا حققته الفتاة فإني أضمن لها جمالًا أخاذًا؛ لأنها ستعرف جيدًا كيف تبدو جميلة..

وفي ذلك أيضًا يقول دكتور مصطفى محمود في كتابه ٥٥ مشكلة حب: "إنّ السحر الذي يستعبد الرجل ويجعله يجري إلى المأذون ليتزوج هو عقل المرأة، عقلها أولاً، وعقلها ثانيًا، وعقلها ثالثًا، وبعد ذلك جمالها وأموالها وحُبها.. وهذا الطبيعي لأنّ العقل أهم شيء في الزواج، وأهم شيء في نجاح الزواج، لأنّ الإخلاص عقل، والوفاء عقل، والقيام بمسؤولية البيت عقل، وتربية الأطفال عقل.. وتدبير ميزانية البيت عقل، ورعاية الرجل في فشله

ومرضه وإفلاسه عقل ومهما كانت المرأة جميلة وجذابة وفاتنة فهذا لا يكفي ليغري الرجل للزواج منها.. إلا إذا كان مغفلاً.

****

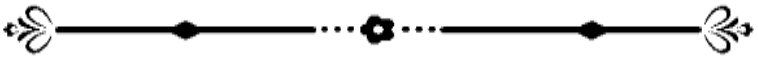

القصة الرابعة.. «هناء»

"الناس ينجبون كي يكون عندهم ذريعة للاستسلام للقهر، عندها يصير بوسعهم أن يقولوا لولا أطفالنا لفعلنا كذا وكذا"

د/أحمد خالد توفيق

• أنا هناء.. الابنة الوحيدة لأبي وأمي، لذلك كنت مدللة جدًا، وأعتبر نفسي محظوظة حينما وضعني القدر في بيت كان لي فيه كامل الحرية في الاختيار وكامل الحرية في إبداء الرأي والتعبير، أن أقول أريد أو لا أريد دون خوف، أن يكون بيني وبين والدي لغة حوار ونقاش، أن تكون لي شخصية وذات منفصلة لا تابعة لأحد أو منساقة وراء أحد، أن تكون قراراتي بكامل إرادتي - دون ضغط - من أحد بما لا يخالف العرف والدين والعادات والتقاليد، منحوني قدرًا من الثقة لا يفنى فكنت لا أخيّب ثقتهم أبدًا، ووضعتها تاجًا أتحلى به، حينما كبرت على ذلك ازدادت ثقتي في نفسي وزاد حبي لذاتي، وتعلمت من أخطائي ومن تجاربي، وكان لذلك التكوين الأكبر في شخصيتي وكان لذلك أيضًا أثر أقوى داخلي، أعتبر ذلك ذكاء من أهلي أنهم علموني بالتجارب لا بالكلام الذي لا يجدي نفعًا، حينما تركوا لي حرية

التعبير دون الضغط لم يتكون بداخلي العناد في مخالفتهم، بل زاد حبي لاستماعهم وزاد احتياجي لطلب المساعدة والتوجيه منهم بكامل الرضا..

ليس كل شيء يدرك بالقوة، اللين يصنع منا ما لا يصنعه السحر..

• كانت الحالة المادية لأبي جيدة جدًا نظرًا لأنّ أبي كان تاجرًا، وكما يعرف طبعًا التجارة مربحة وبها بركة..

فكنت أعيش حياة مرفهة جدًا كل ما أطلبه يُجلب لي بكل سهولة، غير أنّي الوحيدة لهم فكان الدلال غلابًا..

لكن أقدار الله كانت في أن يتوفى أبي وأنا في سن العشرين، كانت فاجعة لم أقوَ على حملها..

حتى الآن ما زلت أتذكر مدى وقع الخبر على روحي..

كان أبي هو الحنان والأمان المفرط، بعد وفاته أحسست بالوحدة أكثر من أي يومٍ مضى، لم يكن لي إخوة فكنت دائمًا أشعر بالوحشة والوحدة، أنظر لكل صديقة لي ترافق أختها أو أخاها..

كمْ تمنيت أن يصبح لي إخوة نتشارك السهر والطعام والأحاديث والأسرار.. كل شيء!

لكن كانت الوحدة هي من ترافقني...

كان أبي يزيل هذا الإحساس دائمًا بقدر المستطاع، لكن بعد موته زادت الوحدة وإحساس الفقد المرير..

مرت الأيام عليّ ثقيلة.. حتى ظهر أيمن بحياتي..

كان أيمن ابن عم إحدى صديقاتي وقد رآني معها ذات يوم، ومن حينها أظهر إعجابه بي واستمر في مراقبتي دائمًا معها وإرسال بعض الرسائل لي مع صديقتي حتى بدأت أميل له جدًا، فجاء أيمن لخطبتي بعدما أعلنت قبولي له، وقد توقعت رفض أمي له، كان سبب رفضها مبنيًا على عقلانية وواقعية.. حينما قالت لي:

_هناء أنتِ عارفة أيمن وضعه المادي عامل إزاي! ده أقل كتير من الوضع اللي أنتِ ممكن تعيشي فيه..

قُلت مُبررة:

_وإيه يعني يا ماما؟ أهم حاجة أنه شخص كويس ومحترم وبيحبني وبعدين مش بيقولوا الراجل يعيبه كل شيء إلا جيبه ولا أيه؟! وخدوهم فقراء يُغنيهم الله..

قالت باعتراض:

_يا حبيبتي طبعًا بس أنتِ مش واخدة بالك فرق المستوى اللي بينك وبينه، أنا مش بقلل منه بس برضو لازم تاخدي بالك أنك اتربيتي على مستوى معين وأنا مش هرضالك تعيشي في وضع غير مستقر ماديًا، محدش يرضى لبنته الوحيدة بهدلة زي دي..

قُلت بعِناد:

_بس أنا راضية يا ماما وموافقة وهقف جمبه وأدعمه وهقبل معاه الوحش قبل الحلو وهسانده لحد ما أموره كلها تبقى تمام!

صمتت للحظة، ثمّ قالت:

_وأموره دي هتبقى تمام أزاي وهو يوم شغل وعشرة لأ؟!

قُلت بحيرة من أمري أخفيتها بثقل:

_ وليه لأ مش جايز الوضع يتحسن ويلاقي شغل مستمر والأمور تبقى تمام.

اعتدلت أمي في جلستها بغير ارتياح ثم قالت:

_بس ده شيء مش مضمون..

هل عندك يقين بالكلام ده، لأن زي ما ممكن وضعه يتعدل ممكن برضو ميتعدلش، وتفضلي عايشة محتارة العمر كله؛ بصي يا هناء أنا هقولك حاجة مهمة أوي وعن واقع تجربتي مع أبوكي الله يرحمه..

أبوكي لما اتجوزني كان حاله بسيط أوي برضو وافقت واتجوزنا وعانيت كتيير أوي علشان أوصل للوضع اللي أنتِ كبرتي واتربيتي فيه ده..

مفيش حاجة جات معانا بالساهل أبدًا.. تعبت كتير واحتجنا كتير ومكنش فيه حيلة غير الصبر والمعاناة والحرمان..

بداية جوازنا كان كلها ضغط وتعب وشقا..

لكن الفرق بيني وبينك أني كنت بنت راجل برضو على قده مستورة الحمد لله فطلعت من بيت أبويا على بيت جوزي وأنا متعودة على مستوى معين ومتربية عليه عشرين سنة ورغم أن ده الوضع اللي كنت متعودة عليه

لكني برضو عانيت لأن مسؤولية الابنة مش زي مسؤولية الزوجة في تدبير البيت والمصاريف وتفكير بكرة يا ترى شايل لينا أيه أنا وأبوكي..

فشوفي بقى أنتِ الفرق أني كنت متعودة على كل ده وبرضو تعبت.. هيكون إيه وضع بنت كبرت واتربت على مستوى عالي من الماديات والخروجات والأكل واللبس وكل الترفيهات دي.. لو نزلت لمستوى أقل من ده بكتير هتعاني قد أيه وهتتعب قد أيه ومش هتعرف تتأقلم بالساهل..

صمتت أمي لثوانٍ قبل أن تضيف ثانيًا:

_البنت يا هناء بتعيش عند أهلها أيًا كان مستواهم ده بيتفرض عليها قدرًا من عند الله مفيش في إيديها اختيار.. لكن زوجها ده هي اللي بتختاره، لذلك الأصح أنها تختار حد في نفس مستواها اللي اتعودت عليه سنين..

جالها اللي في نفس مستواها أو أعلى يبقى خير وبركة، لكن لو جالها اللي أقل من مستواها كتير لازم جدًا تفكر كتير قبل ما تخوض تجربة هي مش قدها!

يعني يا في نفس مستواها يا أعلى لكن أقل دي مجازفة كبيرة منها تستحق أنها تفكر كويس أوي علشان ده مش قرار يستهان بيه!

صمتت لثوانٍ، ثمّ انتبهت على صوتها من جديد تقول:

_مش بعد ما عاشت عشرين سنة مثلاً من مستوى معين هتعرف تتأقلم وتتعايش على اللي أقل منه بكتير في سنة ولا اتنين خصوصًا لو مش ضامنة آخر الكفاح مع الراجل ده هيكون أمتى!

حلو أنك تاخدي راجل محترم وابن ناس وتكافحوا مع بعض وتكبروا مع بعض بس برضو لو أنتِ مش ضامنة قدرتك على الصبر في تجربة زي دي خصوصًا في الأوضاع الحالية اللي كلها ضغط وصعوبة والحياة سريعة ومبترحمش.. وخصوصًا تاني مع بنت زيك أنا عارفة هي قد أيه مرفهة ومدللة ومش قد البهدلة دي كلها يبقى أفضل أنك تراجعي نفسك تاني..

•لا أعلم لما كلام أمي زاد توتري وقلقي لهذا الحد، لكنّني كنت قد أُغرمت بأيمن وأطاح الحب من عيني كل مشقة في سبيل ارتباطي به..

فقلت لها وأنا أخفي قلقي بصوت يملؤه الرضا:

_طب افترضنا يا ماما أن لا أنا ولا أي بنت غيري وافقت على اللي زي أيمن مين يوافق وليه يترفضوا طالما مفيش فيه أي عيب غير كون الظروف ضده وبس.. يعني هو ده ذنبه؟!

قالت نافية:

_بس أنا مقولتش أنه يترفض من الدنيا كلها يعني، منكرش أنه شخص كويس لكن برضو مش ليكِ، جايز يتوافق مع بنت غيرك ظروفها مماثلة لظروفه هتقدر تسعى معاه وتستحمل، لكن أنتِ متعودتيش على ده..

يا هناء افهميني أيمن لسه صغير ومحتاج مش أقل من عشر سنين كمان علشان بس يقدر يدخل على خطوة الجواز دي وهو مرتاح شوية، جايز لسه مش جاهز ليها دلوقت ويكون جاهز ليها قدام بعد كام سنة.. وقتها

هتكوني أنتِ شوفتي حد مناسب ليكِ.. لكن وضع أيمن مش بس كشغل.. ده حتى شقة مفيش ولسه هيأجر!

إيجار يعني نص مرتبة كل شهر بيطير ده غير مصاريف البيت الأساسية.. ده أصلاً لو كان عنده شغل ثابت يقدر يتسند عليه!

حياته الحالية وظروفه مش مضمونة.

ثم أمسكت بيدي بين كفيها تربت عليها برفق وأكملت:

_وأنا مش هقدر أضحي ببنتي الوحيدة ونور عيني في جوازة زي دي مفيهاش استقرار.. أنا عايزة ليكِ حياة هادية مع راجل هيقدر يوفرلك الراحة دي، أنتِ مش مجبرة على التضحية مع أيمن لما ممكن تستني اللي أفضل منه.. وأنا مش مجبرة أضحي بيكِ في تجربة مرهقة زي دي!

•الحقيقة أنّ كلام أمي لم يُجدِ معي نفعًا..

حاولتُ كثيرًا ومع كلّ مرة كنت أرى أيمن فيها كنت أخسر كل محاولاتي وأعود للوقوع في حُبه ثانيةً..

فجازفت في حرب حُبي له، وأقنعت عقلي بأنّ الحُبّ كفيل أن يجعل كل الصعاب يسيرة، ولم لا أجرب كما جربت أمي؟ بخلاف ما فعلته الحياة بها وبرغم كل الاختلافات بيني وبينها..

وبما أني كنت الابنة الوحيدة لها والدلال لم يجعلني خاسرة أبدًا في أي من طلباتي، ضغطت على أمي كثيرًا بالموافقة على أيمن بعدما أتى يجدد طلب خطبتي من جديد..

حاولنا معًا بكل الطرق للفوز بالموافقة من أمي وأهل أبي جميعًا، كانت حربًا كبيرة أن أقنع عائلتي بالموافقة على شاب لا يملك أي شيء غير حُبي فقط!

هي أشياء لا يعترف بها الأهل، لا يرون أي شيء معنوي كل ما يعينهم الماديات المرئية..

وبعد نزاع طال لمدة ستة أشهر وافقت أمي وبدورها أقنعت أعمامي.. رُغم أني لم أُعاند أهلي في أي من قرارات حياتي كُنت مستجيبة لنُصحهم وإرشادهم لي، لكن الحب يُغير طباعنا دون أن نشعر!

• وقد كان، تمت الخطبة..

مر عام، ثمّ عامان ولم يتقدم أيمن في خطوة واحدة.. لا أنكر أنه كان يحاول بشتى الطرق لكن محاولاته كُلها رغم الجهد والمشقة كانت أضعف وأقل بكثير من المتطلبات الأساسية لإتمام زواجنا..

حتى أن أمي أسهمت وساعدت في الكثير والكثير من التجهيزات، من أجلي فقط حملت عن عاتقها كثيرًا من الأشياء المطلوبة منه، تارة تساعد وتارة أخرى تصدر غضبها من تلك الزيجة التي لم ترضَ عنها يومًا..

تساعد لأجلي وتغضب خوفًا لأجلي أيضًا!

تقول لي: ها أنتِ تحاربين في تلك العلاقة من الآن فماذا بعد!

إن كانت المشقة قائمة على روحك من قبل الزواج فماذا ينتظرك بعد!

لكنّني كنت أهدئ روعها بقول إنّ كل الصعاب ستزول بعد الزواج وإنّ ما يتعلق بالأمور المادية قد أنجزناه في ذلك الوقت..

وبالفعل بعد أن أتممنا ثلاثة أعوام من الخطبة.. قد أكملنا تجهيزات الزفاف.. وتزوجت أنا وأيمن وبدأنا في خوض تجربة الزواج بكل ما فيها من عواصف..

في البداية كنت في حالة مواجهة وصمود لكل الصعاب المادية المترتبة في إيجار المسكن الذي يتم دفعه كل شهر، وكأنّ هذا الشهر يومان فقط لا أدري لما يمر هكذا بكل تلك السرعة!

يجلب أيمن المال بكل تعب، ثمّ يأتي وكأنّه هباءٌ منثورٌ يُصرف على المسكن والمأكل وفواتير المياه والكهرباء والغاز.

ثمّ بعد عام حملت في أول مولود لنا، فزادت الأعباء أكثر فأكثر كل يوم.. من متابعة الحمل عند الدكتور والاطمئنان على صحة الجنين والأدوية مع ادخار بعض المال فوق كل تلك المصاريف لتحضير الولادة وما بعد الولادة..

كل شيء كان في حالة ضغط علينا لكنّني كنت أصطبر بأنّ الحب بيني وبين أيمن يكبر يومًا بعد يوم، وبأنّني دخلت تلك العلاقة بإرادتي وصممت على العناد ضد أي ظروف في طريقي تعيق حياتي مع أيمن.. أقسمت على نفسي ألا أُدخل شعور الندم يومًا إلى قلبي..

كل ذلك قررته يوم أن وافقت على الزواج من أيمن ومحوت كل حديث أمي وعائلتي بشأن ما سيترتب عليه ذلك الزواج..

ومرت الأيام وقد رُزقت بفتاة أسميتها تلين..

لم أفكر كثيرًا في أمر الإنجاب وكم طفلًا أريد أن يصبح لدي.. كانت لدي عُقدة قديمة، وهي عُقدة الوحدة وبأني ابنة وحيدة لأبي وأمي وليس لدي إخوة، لطالما كان ذلك سببًا في حزني..

كم تمنيت أن يكون لي أخت تشاركني تفاصيل حياتي، الإخوة هم بمثابة المعطف الدافئ في الليالي الباردة.. ولكني دون إخوة كان الصقيع يملأ قلبي، حاول والداي كثيرًا تعويض هذا الفقدان.. لكن صداقة الإخوة وحُبهم له مذاق آخر.. فتولدت لدي عُقدة الابن الوحيد ولم أكن أريد أن تعيش ابنتي ما عشته أنا. وبعد عامين فقط من ميلاد ابنتي الأولى تلين، أنجبت فتاة أخرى وأسميتها تاليا، وأصبح لدي فتاتان في مسؤوليتي، أنا وأبوهم نصارع الحياة من كل جانب..

بإضافة ما كان علينا من مهام ثقيلة أصبح علينا مهام جديدة تتطلب في توفير الغذاء السليم لتلك الزهرتين وتوفير الملابس الجديدة والأدوية والتعليم والحياة بطبيعتها لا ترحم والحالة الاقتصادية للبلاد تسوء..

وترتفع الأسعار يومًا بعد يوم وتصبح مهمة جلب المال الحلال وتوفير الاحتياجات.. مهمة صعبة وشاقة..

الأسعار تزيد وفي المقابل مستوى الراتب الذي يُدفع لزوجي لا يزيد وإن زاد لا يتكافأ مع زيادة الأسعار..

ثم ماذا أيضًا.. تعرفين عادات المجتمع المصري أو الشرقي بشكل عام..

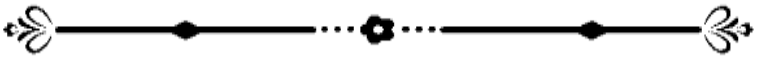

المولود الذكر هو من يحمل اسمك ويحمل لك النعيم الدائم!

سذاجة أليس كذلك..

فترسخت تلك الفكرة الحمقاء في رأس زوجي من قِبل أصدقائه وأهله وظل يراوده حلم إنجاب طفل ذكر..

ومن إلحاح منه، ثم من أهله ومن جميع من يعرفني ويحاولون أن يشعروني بأني لا أستطيع العيش دون ذلك المولود..

فحملت للمرة الثالثة على أمل أن يأتي ذلك الطفل.. لكن أتت الرياح بما لا تشتهيه السُفن، فأنجبت فتاتين توءم، لم أكن لأحزن على أقدار الله أبدًا، لكن ما رأيته من زوجي وممن حولي كان هو الحزن بذاته..

فسمعت من التعليقات السخيفة ما يَسحق خاطري.. لم أُطِق نظرة عدم الرضا لي وشعور النبذ

لابنتيّ، وكأنّ أنا وهنّ من فعلنا ذلك بإرادتنا ونسوا أنها إرادة الله..

حمدت الله على ما رزقني واكتفيت بهن، أربعة فتيات كأنهن الياقوت والمرجان في عيني..

لكن زوجي لم يكتف ولم يرضَ!

وبعد عامين أصبح يُلح مرة أخرى بكل شغف من جديد.. وأصبحت تُلحق بي أيضًا من جديد نصائح أقاربي النساء..

وكل واحدة منهن تريد أن تتقمص دور المصلحة الأسرية، غير أني لم أسلم من كيد النساء وكلماتهن المتعجرفة وتفاخرهن بأولادهن وإحساس الشماتة بي لأني لم أُرزق إلا بالبنات..

والجملة الشهيرة التي تكون كالخنجر في قلب كل أم لم تنجب غير الفتيات، وتقال هكذا بشفقة مصطنعة:

_يا عيني خلفتها كلها بنات!

وغيرها الكثير من الجمل القائمة على مدح أبنائهن الذكور أمامي وأمام أهل زوجي لكسر عيني، وكأنّ رزقهم هو من صُنع أيديهم وليس هو بيد الله!

حتى أنني كرهت تلك التجمعات وأصبحت أنفر منها، لا أحد يعلم ما أعانيه من تفكير في كل شيء خاص بفتياتي وبتربيتهن وتعليمهن وتوفير كامل احتياجاتهن بجانب التفكير في المستقبل الذي كسر ظهري..

لا أحد يعلم حجم المعاناة التي أعيشها كل يوم في تدبير المال الذي يطير في الهواء كل شهر وكأنّه لم يأتِ من الأساس على الرغم أنه أتى بعد مشقة شديدة!

المصاريف الدراسية تزداد لهن والزمن يعيق أي فرصة لأن نصبح في مستوى مادي مستقر..

كانت أمي تساعد دائمًا بكل ما تستطيع المساعدة به، لكن ما تُفيد زجاجة مياه أمام نافورة الاحتياجات التي لا تنضب ولا تنقطع!

لكن زوجي كان اللا وعي يسيطر عليه.. وأحاديث الناس التي لا تعرف غير العادات والتقاليد الساذجة هي التي تقوده وتوجهه، حاولت كثيرًا توعيته تجاه القدوم لخطوة كتلك لكن لم تجدِ محاولاتي نفعًا.

حينها قال لي بتودٍ:

_يا هناء يا حبيبتي افهميني أنا من حقي أعيش الإحساس ده زي كل صحابي وقرايبي.. نفسي يكون ليا ابن يشيل اسمي ويكون ليا عكاز أتسند عليه العمر كله، من حقي أعيش إحساس أن يكون ليا ولد يشاركني كل حاجة وأفرح بيه.

أشحت بنظري بعيدًا وقُلت:

_هو أحنا لازم نمشي ورا كلام الناس في كل حاجة حتى لو كانوا غلط أو حتى ظروفهم غير ظروفنا، يا أيمن هي مش قاعدة ثابتة لازم كلنا نمشي عليها..

أرجوك أنت اللي افهمني بقى.. أنا طاوعتك مرة لكن ربنا ما أردش يبقى نرضى بنصيبنا ونقول يا رب بس ساعدنا وأعينا على تربية البنات دي تربية صالحة وسليمة.. نقدر بس نكبرهم ونعلمهم ويبقى فضل ونعمة من الله.

وبعدين هما يعني بناتك مش هيشيلوا اسمك..

بناتك جمبك العمر كله ومش بس هيكونوا عكازك دول هيكونوا راحتك في الدنيا والآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابًا من النار يوم القيامة"
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ولي ابنتين فأحسن إليهن كن له سترًا من النار"
شوف بقى بركة خلفة البنات هيكونوا سبب في دخولك الجنة والنجاة من النار..
وبكرة تفرح بيهم ويتجوزوا رجالة يكونوا هم كمان أولادك وسندك..
قال بنبرة حزينة:
_هناء.. أنا فاهم كلامك كويس بس أنا برضو محتاج ولد، محتاج أعيش الفرحة دي زي كل اللي قبلي عاشوها أشمعنا أنا اللي أعيش محروم من اللحظات دي!
قُلت مُستنكرة:
_هو بجد يا أيمن أنت مش حاسس بالوضع اللي أحنا فيه، مش حاسس بالمعاناة المادية اللي أحنا فيها، مش حاسس بزعلي على كل مرة بقصر فيها تجاه واحدة من بناتي لما بتقولي أنا عايزة أسافر في رحلة مع المدرسة ولا عايزة فستان جديد ولا غيره وأقولهم لا معلش مفيش عدوها المرادي ده غير غيابهم من الدروس بالشهور علشان الفلوس..
كام مرة حرمت بناتي من حاجات كتير علشان أوفر وأدبر إيجار الشهر أو الديون اللي علينا

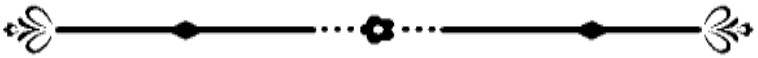

ولا مصاريف المدارس..

لو مش شايف كل ده يبقى أحنا في مصيبة!

قال بهدوء:

_جرى إيه يا هناء فين إيمانك بالله، مش ربنا هو الرزاق وقادر يرزقنا برزقهم ويوسع علينا.. مش جايز الولد يجي وتيجي معاه البركة كلها..

قُلت وأنا أنهض خارجة من الغرفة:

_ونعم بالله أنا فاهمة وعارفة ومتأكدة أن ربنا قادر على كل شيء، بس برضو ربنا مقالش نرمي نفسنا في البحر ونقول هينقذنا!

رحمَ اللهُ امرأً عرف قدر نفسه يا أيمن!

أحنا كده هنظلم نفسنا وهنظلم بناتنا معانا.. وبعدين إيه يضمنلك مش جايز تيجي بنت تاني!

•كنت أتعمد دائمًا بث القلق به كي يصرف النظر عن تلك الفكرة، لكن الأمر لا يطول كثيرًا حتى يعود للحديث به مرة أخرى، فتزداد الأحاديث الحادة بيننا..

حول أني أحرمه من نعمة أن يصبح أبًا لصبي وأن يعيش اللحظات السعيدة التي يخطط بها في مخيلته!

وأنا أعيش في مخيلتي مائة سيناريو عما يحمل لنا المستقبل هكذا فما بال أن يأتي مولود آخر...

إن كان الوضع هكذا وفيه من الصعاب ما فيه ماذا سيحدث فيما بعد؟

كيف سأقوى على تربية خمسة أطفال!

كيف سأدبر مال تعليمهم في المدارس في مراحلهم العمرية المختلفة، ومال الدروس الخصوصية التي لا تعرف الرحمة ولا الشفقة، كيف سأوفر لهم غذاءً صحيًا ومتكاملًا دون أن يصبح أحد منهم مصابًا بأنيميا حادة نظرًا لسوء التغذية!

وكيف أوفر لهم ملابس فاخرة لا تجعلهم أقل من أحد وماذا عن احتياجاتهم النفسية الترفيهية..

وماذا عن المستقبل وتدبير أموال زواجهم.. كيف كل هذا وأنا أعلم علم اليقين بالوضع المادي الضعيف الذي نعيش فيه..

كما يقولون في المثل الشعبي: "اللي جاي على قد اللي رايح" ومع كلّ هذا وضعت كل خوفي جانبًا وخضعت لرغبة زوجي؛ وقد رحم الله حالي حين رزقني بابني يوسف..

كانت فرحة زوجي به تعادل أضعاف فرحته بأي واحدة من الفتيات..

وكأنه أول مولود يُرزق به!

زادت فرحة زوجي وزاد في المقابل خوفي...

كان الخوف والتفكير يؤثر حتى على فرحتي بمولود لطالما أردته أيضًا لأخزي كل نظرة شماتة...

لطالما تمنيت لو كان بإمكاني أن أصبح مثل أيمن في شعوره باللا مبالاة وعدم التفكير وهذا الهدوء!

لكن كيف ذلك ونحن النساء نحسب ألف حساب لكل خطوة نخطوها ونتفكر في أدق التفاصيل!

كما أقسمت على نفسي وتعاهدت بألا أندم يومًا على زواجي من أيمن، فقد وفيت ذلك الوعد، تجاهلت أي إحساس بالندم في أوقات الضيقة والضغط والحاجة المستمرة...

لكن شعور أن يحتاج أي شيء من أطفالي وأمنعهم لعدم توافر المال هو الشعور الذي كان يثقل بداخلي كل يوم ويرهق قلبي، أن يكون الحرمان والتمني هما الروتين اليومي لأطفالي..

كل هذا ولا أعلم حتى كيف أعوضهم بالاهتمام والرعاية والتربية السليمة لهم..

تُرى كيف تستطيع زوجة تعمل طوال اليوم كي تكتسب مالاً تساعد به زوجها في توفير حياة مادية مستقرة...

كيف توافق بين رعاية بيتها وأولادها وزوجها وعملها وأهلها وأهل زوجها ولا بأس في بعض الوقت الذي تدخره لنفسها؟!

كيف في يوم يمر بسرعة البرق أن تفعل كل ذلك دون أن تنقص كفة على الأخرى...

دون أن تهمل كفة دون الأخرى!

كيف ستكون أمًا وزوجة مثالية أو ناجحة؟!

لا أعلم..

الحياة تزداد سوءًا وأنا أزداد إرهاقًا وخوفًا.

والآن بعد أن زال شعور الفرحة المؤقتة لزوجي وازدادت المسؤوليات على عاتقه يومًا بعد يوم وأصبح لا يمتلك وقتًا ليأخذ قسطًا من الراحة حتى.. علم أين الخطأ ولكن بعد فوات الأوان!

إن لم يكن زواجي من أيمن هو المشكلة، فعدم وعيي ووعيه بمسؤولية الإنجاب كانت المشكلة الأعظم...

اليوم نتجرع معًا مرارة الحرمان الذي يعيشونه أبناؤنا، نتألم بالضيق والمعاناة في توفير أقل القليل، زادت الديون علينا وزادت المسؤولية حد الشقاء...

كان أيمن مديونًا بمبلغ مالي وقد صبر عليه الدائن وهو جارنا، مدة سنة وأكثر واليوم جاء يريد المبلغ لأنّ ابنته قد خُطبت ويريد المبلغ لتجهيزها... حينها طلب أيمن مني أن أذهب لزوجته لأطلب منها مهلة شهر آخر على وعد أن تكون هذه آخر مدة، وبالفعل قد ذهبت لها...

وهناك رأيت شكلاً آخر من أشكال اللا وعي في الاختيارات والقرارات حينما وصفت لي ليلى - ابنة جارنا الدائن لنا - شعورها حول خطبتها وما يعتليها من قلق!

****

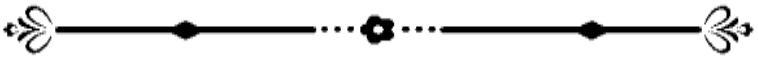

ملاحظة مجتمعية 3..

•عادات المجتمع المصري أو الشرقي بشكل عام..

المولود الذكر هو من يحمل اسمك ويحمل لك النعيم الدائم!

سذاجة أليس كذلك!

عادة وفكرة من زمن لا نعرف له أصل.

يُخيلون إليك أنك لو أنجبت ذكرًا ستصبح من الموعدين بالجنة والناجين من النار، وأنك لو لم تجنب صبيًا ستموت حسرة وغلبًا..

وإن إنجاب الفتيات ليس بكافٍ ولا يجدي نفعًا.

يقنعونك بأنك لو اكتفيت بالفتيات فقط ستعيش حزينًا طوال العمر، وتمدن عينيك إلى كل أب يحمل ولده وتتمنى وتبكي بداخلك دمًا، ولو أقنعتهم أنت بعكس ذلك وحاولت قول إن هذه الفكرة لا تعنيني، اتهموك بالكذب وبأنك فقط تُخفي مشاعرك وحاجتك في أن تصبح أبًا لصبي.

لو فعلت ما فعلت لأصروا على تدشين الفكرة بك وغرزها في عقلك باستماتة.

يجب أن تسعى لتخليد اسمك بإنجاب ذكر!

ولمَ أُخلّد أسمي؟

ماذا سيحدث إن ظل اسمي أعوامًا وأعوامًا يُردد ويتردد على كل المسامع..

أليس العمل الصالح والأثر الطيب هو ما يبقى للحياة الدنيا والآخرة!

أليس في كثير من الحالات نرى فتيات بمكانة مائة ذكر...!

في حبها واهتمامها ورعايتها لأهلها.. أليس أيضًا إنجاب الذكر الذي يتهافت عليه الكثير أحيانًا يصبح في المستقبل نذير الشؤم على أهله ويصبح سببًا في هلاكهم وكثرة مصائبهم!

أيوجد في الإسلام شيء ينُص على الحث بإنجاب الذكر وكرهه إنجاب الفتيات كي تصبح شعوب كاملة ترغب بكل شدة في إنجاب الذكر والتأفف من إنجاب الفتاة؟!

وماذا إن ظل اسم الأب وتخلد!

ألم يلد الأجداد وأجداد الأجداد رجالاً لنفس ذلك السبب...

هل ظل اسمهم ليومنا هذا؟!

أتعرف ما هو اسم الجد السابع في عائلتك؟!

بالطبع لا.. قد اندثر عبر الزمان، ولم ولن يبقى أي من هذه الأسماء..

لكن يوجد ذرية صالحة سواء من الإناث أو الذكور تمتد أعمالهم الصالحة إلى أجدادهم فتكون كالمدد بالرحمة لهم وبدعوات الناس لهم ولأجدادهم...

الفكرة هي في صنع ذرية صالحة أكانت من الإناث أو الذكور، لكن ماذا سيجدي إنجاب

فتى للتفاخر فقط ولتخليد الاسم!

ثمّ نأتي للكارثة الأكبر..

التعداد السكاني للبلاد الذي أصبح كالبركان الهائج، يتهافت الآباء والأمهات أيضًا على الإنجاب دون التفكير أبدًا ولو للحظة في مستقبل ذلك الطفل الذي قررا إنجابه للاستمتاع بصفة الأبوة والأمومة فقط!

مستقبل حياته كلها بجميع تفاصيلها، هل يضمنون له عيشة هنيئة أم عيشة كلها أذية!

هل يقدرون الوضع المالي والنفسي لاستقبال ذلك المولود، هل يعرفون ما عليهم فعله لتنشئة ذلك المولود نشأة صالحة سليمة وسوية، لكنّ الإنجاب دون وعي التربية وأساسياتها هو كارثة بمعنى الكلمة، لكل أب وأم لم يسألا أنفسهم قبل تلك الخطوة أهم سؤال!

لماذا ننجب وما هو وضعنا الذي يسمح بالإنجاب، وما هو الحد الطبيعي لعدد الأطفال الموافق لوضعنا واستطاعتنا؟

هل يوجد تأهيل مادي وفكري وثقافي؟

ثمّ تأتي طبقة أخرى من الطبقات الثرية تقول: وضعنا يسمح دون أن نتأثر أو تتأثر الأطفال فلننجب كما نشاء فالأبناء "عزوة"!

لكن التأثير لا يتوقف على المال فقط، حتى الأطفال الذين ينشؤون في عائلة ثرية يعانون من مشاكل أخرى؛ هل الأم قادرة على تربية أربعة أو خمسة أطفال أو أكثر؟!

دون أن تهمل أحدهم، دون أن تهتم بأصغرهم تاركة أكبرهم في عالمه وحيدًا بحجة أنه كبر وأصبح قادرًا على الاعتماد على نفسه!

وغالبًا يكون أكبرهم هذا في سن مراهقة يعني أنه يحتاج للأم في ذلك الوقت أكثر من أي وقتٍ آخر، لكن الأم تهتم بالأصغر دون مراعاة مشاعر الكبير.

فهل هناك أم تستطيع مواكبة كل الظروف اليومية دون أن تقصر تجاه محاور حياتها كلها..

أطفالها ومذاكرتهم وإطعامهم والاستماع لأحاديثهم ومشاركتهم أفكارهم وأهدافهم، وتعليمهم دينهم وعقيدتهم وخاصة في زمن هكذا تُسحق فيه الأخلاق الحميدة والقيم!

هل ستجد وقتًا لنظافة بيتها وإعداد الطعام والاهتمام بزوجها ورعايته والاعتناء بنفسها دون أن تهمل ذاتها وتلهو مع أحداث الحياة فتصحو – ذات يوم – لتجد زوجها قد تزوج عليها مثلاً بسبب إهمالها لنفسها وله؟

أو على أدنى مستوى تجد الحياة بينهما قد أصابها الفتور واختفى الحب؟

هل ستجد وقتًا لعملها إن كانت تعمل أو لدراستها إن كانت تدرس؟

هل ستجد وقتًا لعبادتها دون أن تقصر في أدائها؟

هل ستجد وقتًا لبر والديها والذهاب لهما ولأخواتها دون أن تهمل كفة صلة الرحم؟

هل ستجد وقتًا للترفيه عن نفسها أو تجديد حياتها وتعلم مهارات جديدة؟

هل ستتمكن من أن تمارس حياتها دون ضغوط؟

هل ستسعفها قوتها البدنية لكل ذلك كل يوم؟

حسنًا إن استطاعت أن تفعل كل ذلك فلن تكون منصفة لكل الجهات، بل - ولا بد - أن تظلم أحد المحاور هذه، ولو كافحت ألا تُقصر تجاههم كلهم.. فستظلم نفسها أولاً وآخِرًا، ثمّ يقال لها بعد كل هذا أنتِ مقصرة...

إذًا فهم على حق، إن لم تتقن معرفة أهداف الإنجاب وقدرتها البدنية والنفسية والعقلية، لاتساع كل ذلك فكان من الأفضل أن تفكر قليلاً!

فليس الوضع يقتصر على المال فقط، إنما الإنجاب دون الوعي بمقدرة الإنسان على مسؤوليته يظلم الأبناء والآباء والأمهات!

فلا الوضع المادي القوي سيبرر لك إنجاب أطفال بكثرة ولا قلة المال ستكون العائق الوحيد في الإنجاب الكثير!

فالمال لا يضمن لك تربية سليمة للأطفال.. وكثرة الأطفال ليست عزوة كما يقال!

لكن أن تجنب طفلًا أو طفلين وتقوم برعايتهم الرعاية الصحية والنفسية والثقافية والدينية رعاية سليمة هو بمكانة أن تنجب عشرين طفلاً..

أن ترمي بهم بذور الحب والعطف والأخلاق والعلم ستُجني ذات يوم ثمارًا وكأنها من ثمار الجنة!

لن تجنيها مع عدد كثير من الأطفال مهما حاولت!

المؤسسات الصحية في البلاد ومؤسسات تنظيم الأسرة التي تناشد منذ زمن بهذا حتى بُح صوتها لم تقل هذا لزعزعة سعادتك وتنغيص عليك رغبتك

في الإنجاب دون حد، بل هم يمتلكون وعيًا وإدراكًا غاب ويحاولون عودته فقط!

فلا تقدموا على الإنجاب إلا وأنتم على يقين من قدرتكم على منح أبنائكم الحب المادي والمعنوي الذي يجعلهم يحبون أنفسهم ويحبون الحياة.

****

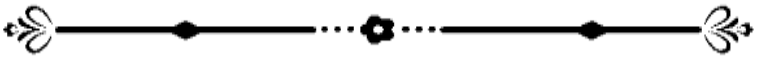

القصة الخامسة.. «ليلى»

"لا تتزوجوا الفسدة لتصلحوهم؛ فيفسدوكم"
"أول مشروع ناجح تقدمه النساء لأطفالها، هو أب جيد!"

•أنا ليلى.. قد ولدت في بيت متواضع اجتماعيًا، أبي موظف حكومي وأمي ربة منزل ككثير من الأسر العادية، ولدي أخ أصغر مني؛ لم يكن أبي وأمي بالقدر الكبير من التدين واتباع التعليمات الدينية، لكن على كل حال يلتزمون بالصلاة والصيام وإخراج الزكاة، الأساسيات التي لا بد من فعلها وتركها يعتبر أثمًا كبيرًا، لكن في الطبيعي قد تُصنف أسرتي ككثير من الأسر الذي يطلق عليهم كلمة "عادي"، وكانت هذه الكلمة هي أول خطأ كان قد شاع..

ما معنى كلمة عادي التي نطلقها لكي نبرر بها أن هذا ليس محرمًا ولكن أيضًا ليس بالقدر الكافي من الدين!

وأحيانًا يندرج تحت تلك الكلمة كل ما هو محرم وبكل سلاسة ولكن مع انتشاره واستساغته أصبح عاديًا هكذا، وكأنه قد جاز وأصبح حلالًا بانتشاره بين الناس وكأنّ هذا الطبيعي!

في أول صراع بيني وبين أبي وأمي كان على ارتداء الزي الشرعي!
بدلاً عن أن يقنعوني هم بالزي الشرعي، كنت أقنعهم أنا..
كنت قد كبرت لسن لم يسمح لي بأن أتهاون في ارتدائه، وقد اصطفاني الله لارتدائه من بين فتيات كثيرة، حينها كنت قد بلغت الثمانية عشرة أعوام، لكن ما زلت في نظر والديّ طفلة، هما يعتبرانني كذلك ليس في ذلك مشكلة، لكن لست في نظر الدين هكذا!
ثمانية عشر عامًا أصبحت في سن يُحتم عليّ فيه ارتداء الخمار، بل ومن قبل ذلك يقول الله عزّ وجلّ: "وليضربن بخمورهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن"
•حاولت بشتى الطرق إقناعهم بفرضية ارتداء الخمار والملابس الفضفاضة...
لكنهم كانوا يرون في ذلك مغالاة مني، رغم محاولتي إقناعهم بأنها من الثوابت التي لا تخضع للتبرير والإقناع.
•سبحان الله فطرة الفتيات الزينة ولكن في الوقت ذاته الفطرة السليمة هي إخفاء زينتها واحتشامها...
قد منَّ الله عليّ بذلك الفكر والقبول له...
لكن نظرة أبي وأمي كانت مقتبسة من نظرة المجتمع للزي الشرعي، وبأنّه للنساء اللواتي تعدى عمرهن الثلاثين مثلاً أو للنساء المتزوجات فقط!

لكن ليس للفتيات في مقتبل عمرهم، لكن وإن جئنا للحق فهم أولى الفئات العمرية بحاجة إليه لما في ذلك العمر من تكاثر الفتن والمغريات حولهن، هو عصمة لهن وتكريم ووسام شرف واصطفاء من الله ونعمة لا تعرفها إلا من تحلت بها..

•بعد الكثير من المناوشات وبعد أن صار عمري في التاسعة عشر..

حينها قد فاض بي الكيل من رفضهم لأول خطوة في طريق اتباعي لأوامر الله

"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" كانت الجملة التي تتكرر في عقلي كل يوم، لم أكن لأصبر أكثر من ذلك، فأخذت الخطوة عنوة؛ فاشتريت الخمار وارتديته ودخلت به البيت لتكون المفاجأة..

أثارت تلك الحركة غيظهم، فتعالت الأصوات وقد أقروا بعدم خروجي به مرة أخرى، لكني أبيت الخروج وأقسمت أني لن أخرج من البيت إلا به، وبعد أن رأوا إصراري وتمسكي به قد سمحوا لي بارتدائه، وأخيرًا بعد أن صارعت كثيرًا معهم، ظل حلم أن أصبح فتاة منتقبة يراودني كثيرًا

لكنّي لم أقوَ على طرح تلك الفكرة أمامهم، وحينما زاد حنيني للنقاب؛ ناقشت أمي به فنظرت لي نظرة قاتلة وقالت:

_بتحلمي! قال نقاب قال، نفسي تعيشي سنك وبس زيك زي البنات وتبطلي تفكير الستات الي عندها خمسين سنة ده، مفيش نقاب أبدًا طول

ما أنتِ في البيت ده لما تتجوزي أبقي ألبسيه في بيت جوزك.. بلا وقف حال بقى!

•وكذلك تكون ردة فعل أمي أمام أي من قناعاتي وآرائي، ترى أمي أن النقاب سيمنع زواجي!

حاولت إقناعها بأنّ الزواج رزق من الله، والنقاب طاعة لله، فكيف لطاعة أن تمنع رزقًا!

لكنّها لم تقتنع أرادت أن أصبح كالكثير من الفتيات اللواتي يستخدمن الكلمة نفسها "عادي".

ملتزمة ولا عادي!

- بالفعل - تربح كلمة "عادي"!

•البيئة التي ينشأ بها الإنسان تساعده كثيرًا على الوصول لرغباته سواء الدينية أو الدنيوية. واجهت الكثير من الصراعات بسبب اختلاف أبي وأمي، اختلافات حارقة لطاقتي، أكنت أنا على خطأ كي أواجه كل تلك الصعاب أمام معتقداتي الدينية السلمية والتي هما يريانها أيضًا سليمة لا شك بها لكنّهما يأبيان أن أقوم بتطبيقها لماذا!

لأصبح عادي..

لأصبح ككثير من الفتيات اللواتي في نفس عمري حتى وإن كانوا على خطأ، المجتمع يفرض قوانين ومفاهيم فيطبقها الجميع، بينما الكثير من قوانين الشرع والدين لا يطبقها أحد...

سمعت الكثير من التعليقات السخيفة، كتلك التي يقولها الشخص الذي يسمى "بالعادي"

عندما يرى أحدًا فقط يتبع الأوامر الطبيعية لدينه فيقول "متشدد".

أفي اتباع أوامر الله والبعد عن نواهيه تشدّد!

عندما ألتزم بصلواتي وأحتشم عن عيون الرجال وأرتدي ما فرضه الله لي وأبتعد عن الاختلاط بالرجال وأغض بصري أصبح متشددة!

وما في ذلك من تشدد...؟!

أليس هذا هو الطبيعي وما دون ذلك هو الغريب؟!

أليس علينا أن نغير مفاهيمنا عن كلمة التشدد وكلمة عادي!!

كل هذا ونحن لا نفعل ما نستحق عليه كلمة ملتزم، بل نحن نجاهد بما نستطيع وما نستطيعه هذا أقل القليل!!

•حاولت الجمع بين رغباتي في تطبيق أوامر الله في حياتي وبر والديّ في ألا أخالف رأيهما وأتسبب في انزعاجهما، فكانت حرب دائمة بيني وبين نفسي..

إلى أن مرت الأيام ما بين هذا وذاك، وأتممت دراستي الجامعية ودخلت على مرحلة الارتباط والخطبة، حينها كنت قد بلغت الثانية والعشرين من عمري، وقد خُطِبت معظم صديقاتي وقريباتي الفتيات..

وظلت أمي تلوم على ملابسي وخماري وأنهم جعلوني كامرأة عجوز لن يرغب في الارتباط بها أي رجل، لكنّني كنت صامدة..

حتى تقدم لخطبتي مروان ابن صديقة قديمة لأمي، قد رأتني ذات يوم مع أمي وأعجبت بي وبأخلاقي، بعدما صرحت برغبتها بأن تخطبني لابنها.. قالت لي في لقاء ما، إنها تريد فتاة ذات دين وأخلاق لتقوي إيمان ولدها وتشد بيده إلى طريق الله..

قلت في نفسي لا بأس، بل هذه ميزة أن تبحث هي وابنها على من تقوّم دينه وتشد بأزره نحو الله، أن يكون هو على خلق ودين ويريد من تكمله وتزيده!

لكن في يوم الرؤية الشرعية كان الحوار غريبًا عما توقعت.. جلسنا جميعًا في ترقب حتى قالت والدته:

_مش نسيب ليلى ومروان بقى مع بعد يتعرفوا ولا أيه!

•كانت الرؤية الشرعية الأولى لي لم أجرب ذلك الموقف والإحساس من قبل، فكان التوتر سيد الموقف وكانت خبرتي قليلة جدًا. لكني تمالكت نفسي عندما تركونا بمفردنا..

وبدأنا في التعارف، كل ما كان يهمني هو طباعه وأخلاقه ومدى درجة التزامه ومعرفته بتعاليم دينه، فكان السؤال الأول لي بعدما تركته تحدث عن نفسه في كل شيء، تحدث عن عمله وعن دراسته، عن تفاصيل يومه وكيف يقضيه، عن حياته وخططته للمستقبل، لكنّه لم يذكر أي شيء عن يومياته الدينية أو أي شيء من هذا القبيل، حتى استعجبت أنّ هكذا الحديث خالٍ من ذكر أي شيء يمت بالدين وبفكره الديني - على الأقل -

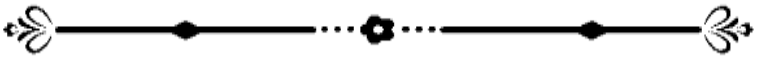

ألم تقل والدته أنه يريد فتاة على قدر من الالتزام والدين أم أني فهمت خطأ؟!

ألم يكن من المفترض أن يتحدث بعد كل ذلك عن أي شيء في مخططاته الدينية كما تحدث عن مخططاته الدنيوية!

ألن يجمعنا نقاش واحد عن فكرنا الديني ومدى صلابته - على الأقل - كنا سنجد نقطة التقاء..

لكن انتظرت طويلاً حتى انتهى ولم أجد ما انتظرته، فقُلت في نفسي لا بأس سأستجوبه بنفسي لعله قد نسي..

فقلت له بعد أن سمح لي بسؤاله:

_ طيب هو أهم سؤال؛ أنت بتصلي؟!

رأيت على وجهه علامات ضيق وحيرة، وكأنّ السؤال لم يكن يتوقعه أو يتهرب منذ زمن منه وقد داهمته به، فقال بتقطع:

_أمم بصي أاا.. عايزة الحقيقة أنا حابب أكون صريح معاكِ برضو، أنا مش منتظم أوي في الصلاة يعني ساعات بنسى وساعات بكسل وأوقات كتير بكون مرهق من الشغل.. لكن أنا بصلي بس مش علطول وبرضو همتك معايا بقى تفكريني وتاخدي بإيدي كده وتشجعيني على الصلاة وأبقى زيك!!

انتقل الضيق من وجهه إلى وجهي وقلبي معًا، كيف لا يُصلي!

شاب في ذلك العمر لم ينتظم حتى الآن في الصلاة، وهي واحدة من أركان الإسلام وأهم عبادة وأول ما يُسأل عنه المرء بعد موته، وكيف ذلك وقد أكدت والدته على خُلقه!

تنفست ببطء وانخرطت معه في عدد لا بأس به من الأسئلة عن التزامه بتعاليم الدين..

إن كان في الصلاة متقطعًا إذًا فما هو غيرها من المؤكد أيضًا فيه تساهل وبُعد!

قُلت بعد أن تجاهلت إجابته.. لا وقت الآن للنقاش والجدال، أريد أن أعلم إجابات الأسئلة التي في عقلي فقط والتي ستحدد تقييمه..

فقُلت مستفهمة:

_طب أيه علاقتك بالقرآن.. يعني قولي مثلاً آخر مرة قرأت فيها قرآن كانت أمتى؟!

من جديد ظهر عليه الضيق وبدأ في التلعثم..

بلع ريقه في قلق وقال:

_أمم مش فاكر بالظبط بس ممكن مثلًا من حوالي شهر كده..

•لكن من السهولة أن تكتشف كذب شخص لم يكن يتخيل أو يتوقع الموقف قبل حدوثه..!!

لكني تجاهلت ظنوني وفضلّت أن أُحسن الظن به وأسأله بالتفصيل..

قُلت مجاهدة ألا يظهر عليّ عدم التصديق:

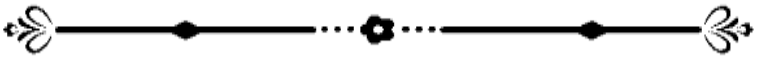

_طب كويس وليه بقالك شهر مقرأتش تاني؟!

صمت للحظة ثم قال:

_بصراحة الشغل بتاعي صعب أوي ومشغول طول الوقت ومضغوط جدًا، فلما ببقى فاضي يعني بقرأ كده..

قُلت بهدوء:

_على حد علمي إنك عندك محل دهب ومصوغات، يعني طول اليوم في المحل.. مفيش ربع ساعة حتى تقرأ فيها صفحتين بس، ده حتى مش هياخدوا منك عشر دقايق مش ربع ساعة حتى زي ما قولت!!

قال في توتر:

_هه.. آه فعلاً عندك حق والله بس الإنسان بينسى بقى وبيتكاسل، بس أنا هحاول ماشي وأنتِ همتك معايا بقى تفكريني علطول..

•من جديد يُريد همتي، وماذا ستفعل همتي أمام همتك التي توفاها الله منذ زمن!!

إن لم تُصلح من نفسك لأجل الله ماذا عليّ أنا أن أفعل كي أصلحك!!

قُلت بتساؤل:

_طيب قولي بقى بما أنك بتتعامل في مجال معظم اللي بيتعاملوا معاك ستات.. بتتعامل معاهم أزاي وكده؟!

قال بسرعة نافيًا:

_لا خاالص أنا معاملاتي كلها بحدود.

•بعد أن سمعت منه الضغط على حرف الدال في كلمة حدود، تيقنت أنه لم تكن هناك حدود ولا حتى حد واحد!!

لكني أكملت ذلك النقاش الذي لم أحصل فيه على إجابة واحدة تُرضيني..

فقُلت وأنا أجمع آخر إجابة ستعطيني أي بصيص أمل بعد أن فقدت كل آمالي فيه منذ أن علمت بشأن صلاته!!

بنفاد صبر قُلت:

_طيب وعلى كده بقى لو أي بنت من قرايبك أو حتى اللي بيشتغلوا معاك سلمت عليك، بتسلم عليها عادي ولا إيه؟!

وجدت على وجهه كل علامات الاستغراب ونطق بكل فخر:

_ يعني إيه مش فاهم بصراحة!! أمال مش هسلم لا طبعًا أنا بفهم في الذوق أوي!

وبسلم وبرحب بيهم جدًا كمان..

قُلت مُصححة قصدي له:

_لا أنك تسلم بالكلام كده وترحب ده طبعًا من الواجب وده شيء مستحب في شخصية أي حد ومن الذوق فعلاً زي ما قولت بس أنا قصد سؤالي بتسلم بالإيد..؟!

ثانيًا ظهر الاستغراب على تقاسيم وجهه فقال:

_أه طبعًا بسلم بالإيد ومش هسلم بالإيد ليه يعني!!

قُلت بنفاد صبر من جديد:

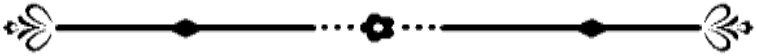

_طب أنت متعرفش حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "لئن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خيرًا له من أن يمس امرأة لا تحل له"

أشاح بوجهه بعيدًا وقال:

_لا.. لا شكلك أنتِ بس فاهمة الحديث غلط.. وبعدين أهم حاجة النية دي اللي بيتحاسب عليها الإنسان، وأنا عمري ما كانت نيتي غير السلام وبس.. علطول نيتي سليمة!!

احتد النقاش بيننا وشعرت أنني على وشك الخوض في حرب!!

فقُلت بنبرة جدية:

_بس يا أستاذ مروان أوامر الدين مش هنتجاهلها بالنيات السليمة!!

حتى لو النية سليمة نتبع أوامر الدين ونتقي الشُبهات ولا إيه؟!

اعتدل في جلسته بتأنٍ ثم قال:

_لا أنا مش معاكِ في النقطة دي بصراحة.. أنا كنت معاكِ في كل اللي قبل كده وفعلاً اقتنعت أني أتغير معاكِ.. لكن هنا أنا شايف أنك مزوداها شوية؟! لأن ده طبيعي كل الناس بتعمل كده، وبعدين تصدقي أنا مرة شوفت مامت صاحبي اللي أنا متربي معاه وصحاب بقالنا سنين وسلمت عليها وحضنتها كمان لأنها بمثابة أمي!

•كانت نظراتي الحادة تزداد حدة بعد كل كلمة ينطقها حتى أنني ظننت أني توهمت فيما سمعت!!

مزوداها!!

اقتنعت إني أتغير معاكي!

طبيعي كل الناس بتعمل كده!

مامت صاحبي!

سلمت عليها وحضنتها!

لم أكن أدري على أي عبارة فيهم عليّ أن أصبر؟!

هذا يُسلم ويحتضن إذًا هو لا يعلم شيئًا عن غض البصر، فقُلت وكأني أرمي القنبلة الأخيرة:

_لو تاخد بالك يا أستاذ مروان أنا كل كلامي معاك بالقرآن والسنة، متكلمتش في آرائي الشخصية واللي هي كده كده في الحقيقة برضو تابعة للدين، لأن أنا رأيي وقناعاتي تتوقف عند الدين وتقول سمعنا وأطعنا!

وبالنسبة لموضوع اقتناعك ده فكرتني بكلام الشيخ محمد الغليظ لما قال: "لما نتكلم في دين أمر، ملكش غير التسليم، مفيش حاجة اسمها أقنعني.. تقدر تقول لربنا وأنت بتتحاسب، مقتنعتش؟!"

قال وقد ظهر الحرج عليه:

_أنا متفهم لكلامك والله بس كل حاجة بتيجي واحدة واحدة وأنا لسه مش متعود أنا عندي نية إني أكون أحسن والله بس أنتِ لازم تسبيلي فرصة حتى وتكوني عون ليا ولا أيه؟!

شرعت في طرح سؤال آخر قبل أن يسرقني الوقت ولا أتمكن من معرفته أكثر.

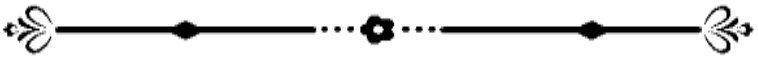

فقُلت:

_طيب قولي بتشرب سجاير ولا عافاك الله منها؟!

ارتشف من كوب العصير في قلق ثم أردف قائلاً:

_بصراحة أه بشرب سجاير بس مش كتير يعني دي حاجة بسيطة كده لما بيكون مزاجي مش متظبط بس، وبرضو أنا بحاول أبطلها بقالي فترة!!

•لم نتمكن من إكمال الحديث لأن والدته ووالدتي قد دخلتا إلينا.. حمدت الله على انتهاء هذه الجلسة لأن كان ببالي ألف فكرة من التخبط...!

انتهى اليوم وجلست مع نفسي أفكر..

الحقيقة التي لا أنفيها أبدًا هي أنه منذ أن رأيته ومن أول وهلة قد أعجبت به،ثم حين تحدث عن حياته ومخططاته وآرائه زاد إعجابي به.. كل شيء كان يسير عن النحو الجيد، ثمّ ذهب كل هذا في مهب الريح عندما بدأنا الحديث عن صلاته وعباداته، شاب جميل جداً ولبق في حديثه، متعلم تعليمًا عاليًا وطموحًا ويعمل في مجال يتيح له مستوى ماديًا ممتازًا، ومن عائلة معروفة ولها اسم وشأن، يمتلكون عقارات وأراضي كثيرة تجعلهم من الطبقات الاجتماعية المميزة به، معظم بل وكل المواصفات التي تحلم بها أي فتاة، ولا أنكر أني كنت قد أعجبت به جدًا للحد الذي جعلني أفكر في أن أقبل به وأكمل معه ما ينقصه من التزام بالدين، لكن الخوف من تلك الخطوة يحبطني ويشتتني حتى توصلت مع نفسي آخِرًا أن أرفضه بارتياح بدلاً من أن أوافق عليه بشك وتخبط..

لكن أهلي لم يفكروا هكذا وكان من الصعب عليهم تقبل رفض عريس بكل تلك المواصفات،

فعندما أعلمت أمي بنيتي في الرفض، احتقن وجهها وصرخت قائلة:

_لاااا ده أنتِ بتستعبطي بقى، بقولك إيه رفض مفيش لازم توافقي عليه، ده عريس لُقطة ميتعوضش، إنتِ عايزة تجنني ولا أيه..

قُلت بحيرة من أمري:

_بس يا ماما افهميني أنا خايفة، أنا معاكِ هو فعلاً حد مناسب أوي وفيه صفات كتير كويسة لكن أهم صفة مش موجودة، يا ماما ده مبيصليش!!

ولما اتكلمت معاه في كذا حاجة تانية عن أوراد العبادة كان رده أنه مش ملتزم بيها وبيكسل عنها!!

قالت بهدوء:

_طب وفيها إيه هو أنتِ هتلاقي كل اللي عيزاه أكيد لأ، محدش كامل يا حبيبتي، لازم هتلاقي نقص وفي نقص ممكن يتعدل ويتصلح وفي نقص لا بيبقى صعب..

وبعدين طب ما أنتِ أهو ملتزمة وعارفة كل الكلام ده خديه واحدة واحدة وخليكي ذكية كده وعلميه أنتِ وخدي فيه ثواب..

ثم صمتت للحظة قبل أن تُردف ساخرة:

_يبقى كسبتيه وكسبتي أجر ولا إيه يا ملتزمة يا بتاعت ربنا يا شيخة!

قُلت بتأفف:

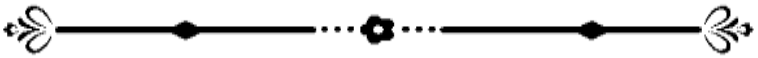

_يووووه بقى يا ماما مش هنخلص من الكلام ده، أنا معاكِ أني ممكن أعمل كده بس إيه يضمني أنه فعلاً هيتغير ويبقى زيي.. نفسي تقدري خوفي وبس.. وبعدين هو حضرتك ناسية أنه بيدخن كمان، هو أنا هصلح إيه ولا إيه؟!

قالت بحسم:

_لا يا حبيبتي هيتغير بس لما تكون معاه بنت ذكية وتعرف توجهه للجهة اللي هي عيزاها، ولو الفرصة دي قدام أي بنت هتعرف تستغلها مش هتبقى خايبة زيك.. وبعدين ما كُل الشباب بتدخن يعني هو كان الوحيد.. خديها تحدي بقى وغيريه كله على مزاجك وبعدين مهو راضي أهو وعنده قابليه للتغير متبقيش غبية أنتِ بقى وتستسلمي وتضيعيه من إيدك..

ومن الآخر بقى يا ليلى لا أنا ولا بباكي هنسمحلك تضيعي الفرصة دي لأنها مش هتتعوض تاني

قُلت بتساؤل وقلق:

_تفتكري يا ماما هقدر أغيره؟!

تفتكري أنها فرصة مش هتتعوض؟!

قالت وهي تنهض من جواري:

_أفتكر يا حبيبتي أفتكر ونص!

•بعد أن أقنعتني أمي بالقبول به وغيرت مفاهيمي كلها، وافقت به وبدأت رحلتي معه من أول يوم في الخطبة..

حينما صمم على عمل خطبة مختلطة وبها معازف كالمتعارف عليه والمنتشر!!

كنت خططت لذلك اليوم منذ زمن أن يكون حفلاً إسلاميًا بسيطًا ومنفصلاً وليس به معازف أو أي شيء يغضب الله..

لكن الرفض أتى من أهلي قبله هو وأهله، وما كان مني سوى الخضوع لهم ولرأيهم، وكان هذا أول تساهل وتسليم تام مني!!

لم يكن لي معين يعينني على تنفيذ ما حلمت به كثيرًا، لم يكن هناك رأي يماثل رأيي، كيف لي أن أقنعه هو وأهلي، كان الضغط عليّ قوي جداً فلم أصمد وتنازلت!

ثم عني في ذلك اليوم وقد اكتملت الأخطاء كلها والخطوط الحمراء التي لطالما تجاهلتها!

فوضعت زينة كاملة وخلعت خماري وأصبح حجابًا قصيرًا جدًا، وامتلأ وجهي بمساحيق التجميل التي لم أضعها على وجهي قط ولم أظهر بها أمام أي رجال!

وكانت تلك هي أول مرة أظهر فيها بتبرج هكذا!

فلم يغادرني إحساس الضيق ولم تذهب عني تلك الغصة التي حضرت في قلبي قبل خروجي أمام الجميع، ثم أتينا للفصل الثاني من ذلك اليوم... عندما أرادوا أن يلبسني مروان خاتم الخطبة!

أنا من كنت أسخر من الفتيات اللواتي يفعلن ذلك ويتركون أنفسهم لرجل ليس من محارمهن ليمسك يديهن، أصبحت منهن وبكل سهولة!

أليس أنا هي نفس الفتاة التي أقسمت في نفسها ألا تمسها يد رجل إلا في الحلال!

الآن أنا أسخر من نفسي حينما تذكرت ذلك المنشور الذي نشرته على الفيسبوك منذ عام حين كتبت ساخرة "مينفعش خطيبك يلبسك الدبلة إلهي تلبسي في عمود!!"

خضعت وقبلت...!!

أنا التي لم تكن تحضر حفلاً يحتوي على تلك المشاهد، أصبح حفلي به كل تلك المشاهد..

ثم مَنْ تقبل بهذا كله عليها أن تُكمل به وتجاري الأحداث، فأصبح الجميع يُلحون عليّ ويحثونني على أن أرقص مع خطيبي ومع أقاربه.. ففعلت بكل خضوع!

لا وقت للنقاش أو الرفض!

إن لم أقدر على الرفض في كل ما فات هل سأقدر الآن!

وزاد أكثر حينما تعرضت لجلسة تصوير مع خطيبي به كل الأوضاع التي لا تناسب فتاة تعرف حدودها وحدود دينها...

جلسة تصوير أوضاعها لا تجوز إلا لاثنين عاقدين!

أهكذا نحن مخطوبان فقط!

والله إن الخطبة التي أباحها الله بريئة مما فعلنا!

ضغط.. ضغط.. ضغط.. الكثير من الضغط أتعرض له، ربما لو أقفلت ذلك الباب وصممت على رفضي من البداية لكنت قد حجبت على نفسي باب فتنة كبير!

لكني تعاميت عن الفرق الشاسع بيني وبينه وكم الاختلافات، وصدقت أني أنا من سيغيره ويبدله، الآن أرى أنه هو من ربح، بل هو من غيرني وبدلني وجعلني في قالب يُشبه قالبه!

بعدما فات على حفل خطبتنا يومان وقد أفقت من تلك الغيبوبة التي كنت بها، صُدمت من كل الأخطاء والتنازلات التي وقعت بها..

ندمت ندمًا لم أن أندمه من قبل، وجعلت أتساءل ماذا حل بي.. أين كان عقلي؟!

أم فرحتي بالخطبة وفرحتي به وبإعجابي به والميول له قد أنساني!!

أم أنّ الضغط الذي تعرضت له كان كفيلاً بأن ينسيني ويجبرني على الخضوع!!

أهذا كان اختبارًا من الله على صدق التزامي!!

أهذا كان اختبارًا من الله على صدق معتقداتي التي كنت أتحدث بها دومًا!!

أكان هذا بمكانة اختبار على صدق مبادئي الدينية!!

أهكذا أنا كاذبة، منافقة؟!

أم أني ضعيفة وأتت الفتنة لي في موضع ضعف وتحكمت بي!!

كان تأنيب الضمير يُميتني كل يوم، وجلد الذات لا يتوقف عندي!!
جددت توبتي وندمت أشد الندم وعزمت على أن أغيره بصدق وأبدأ خطتي التي فشلت بها من أول يوم معه..
فكان تأنيب الضمير الدافع لي بأن أبدأ معه وأعتبر ما فات كان درسًا قاسيًا في البداية حتى لا أندرج إلى الأسوأ..
ومنذ يومنا الأول حرصت على أن أبدأ بصلاته وحثه على المواظبة عليها ومراقبة التغيير عليه، في كل توقيت للصلاة أقوم بالاتصال به وتذكيره بها على الرغم من وجود الآذان الذي يصدح في كل مكان..
لكن أخذت ذلك من باب الأمر بالمعروف وأن نتشارك الطاعة معًا، الحقيقة أن الوضع كان يحمل الإيجابية في أول أسبوع فقط، وبعد ذلك كان الكسل قد عاد من جديد، أتصل لأذكره بالصلاة يتحجج بأنه مشغول جدًا ولا تسنح له فرصة للذهاب للمسجد وبأنه حين يتفرغ سيؤدي الصلاة..
يوم، يومان، ثلاثة على هذا المنوال..
وأنا أتابع معه وأكرر عليه، حتى أحسست أنه قد مل فأصبح يجاريني ويحاول تمرير الكلام مرة بعد مرة، ثم تحول الأمر وقد شعرت بأنه يكذب عليّ ويقنعني بأنه قد ذهب للصلاة، لكني أعلم علم اليقين أنه لم يؤدِ صلاته!!
ماذا عليّ أنا أفعل، من سيراقبه!!
بدأت تحذيره بألا يكذب عليّ وإلا سأتركه فورًا وبأن الله هو الرقيب!!

لكن لا حياة لمن تنادي!!

يأتي لزيارتي في المنزل، فيؤذن الإمام للصلاة ولا يتحرك ساكن من مكانه ليقوم للصلاة في المسجد، أقوم بتنبيه فيتكاسل ويخبرني بأنه جاء هنا ساعتين فقط لا حاجة لأن يضيع منهم أي دقيقة وأنه سيصلي فور عودته للمنزل!!

أغضب وأثور ولا يستجيب هو!!

لا صلاة جماعة في المسجد ولا صلاة في البيت ولا صلاة في أي وقت...

أنا من كنت أحلم بزوج يصلي السنن ويلتزم بها، الآن مع رجل لا يصلي الفريضة من الأساس!

أحسست أنني في صراع دائم لا وجود فيه لأي نتيجة، بُح صوتي بتعريفه بأهمية الصلاة وعقوبة تاركها وتوضيح أهم طرق التحفيز على أدائها، فعلت كل ما عليّ فعله، لكن من لا يتغير من أجل نفسه ومن أجل حبّ الله والسعي لرضاه لن يتغير من أجلي أنا!

بدأت بإرسال له مقاطع دينية لبعض المشايخ الذين لهم طريقة محببة في التشجيع على العبادات، لكن في النهاية لم يتأثر وغالبًا كان يوهمني بأنه يسمعها وهو لم يفعل!

جربت كلّ الطرق حتى نفدت كل مخططاتي!

كنت في حيرة ما بين ميولي الشديد له ولحبه وما بين الصراع الدائم داخلي لمواجهة عيوبه التي لطالما أنكرتها على أي شاب...

لم أكن أتخيل أن أتنازل بهذا الشكل، لكن الخطأ لم يكن في التنازل فقط فكان من العادي أن أتراجع عن ذلك التنازل...

لكن الخطأ الأكبر كان في أن أحرك مشاعري وقلبي تجاهه بكل تلك السرعة...!

لم يتثنَّ لي الوقت لمعالجة تقصيره تجاه الصلاة حتى دخلت في مرحلة جديدة من الصراع معه، ألا وهي ضوابط الخطبة...

كنت قد ناقشت ذلك معه منذ البداية، وقد استاء منه وقد لاحظت ذلك بشدة لكني تجاهلت أيضًا على أمل أني سأغيره بذكائي كما قالت أمي!

حتى اصطدمت بواقع آخر تمامًا، كأي شاب ملول لم يجعل رضا الله هو هدفه، بل كان يسعى لأن ينال رضاي فقط في البداية حتى تسير الأمور على ما يرام وبعدها سيتغير الحال، كنت أنا أظن أنه سيتغير على يدي وهو يظن أني سأتغير على يده..

وكل منا يظن أنه سيشكل الآخر وفق طباعه ومراده!

حتى أتى في إحدى مرات زيارته لي وقال في منتهى الجرأة:

_في إيه يا ليلى مش معقول أنا حاسس إني خاطب واحد صاحبي، مش كده يعني أنتِ منشفاها عليا خالص.. مفيش كلمة واحدة حلوة أسمعها منك طول المدة دي وكأننا مش مخطوبين

قُلت بعصبية:

_مروان لو سمحت أحنا اتفقنا مع بعض من الأول أن الكلام ده ممنوع نهائي وعرفتك كويس أوي إني مش هتنازل في النقطة دي بالذات.

قال بنفور وملل:

_بس دي مش طريقة يا ليلى أنا حقيقي مليت وزهقت، يعني وفيها إيه لما تقوليلي أي كلمة تبلي بيها ريقي.

قُلت بضحك لأخفف من شدة الحديث بيننا:

_إيه أبل بيها ريقك دي هو أنا كنت علبة عصير..

قال بنبرة جدية:

_ليلى على فكرة أنا مش بهزر بس أسلوبك ده مش مريحني وكل كلامنا جد كده.. أنتِ مش شايفة حوالينا كل المخطوبين إزاي..

قُلت بحسم:

_لا يا مروان أنا مليش دعوة بحد حوالينا أنا ليا دعوة باللي يرضي ربنا وإني متجاوزش حدودي في أي حاجة حرام.. اللي بيبدأ بالحرام نهايته مش هتعجبه، لازم نتقي الله في الفترة دي علشان ربنا يبارك لنا في حياتنا بعد الجواز.

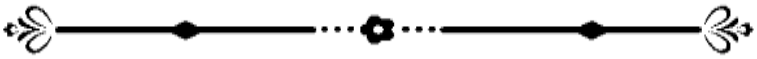

زفر بضيق ثم قال:

_هو أنتِ لما تقوليلي كلمتين حلوين تخففي بيهم عليا ضغط الشغل وتجهيز الشقة يبقى كده أنا طالب منك حاجة حرام.. هو أنا لما أسمع منك كلمة أحس بيها إني مرغوب منك يبقى حرام؟!

أشحت بوجهي بعيدًا عنه وقُلت:

_لا المفروض تعرف إنك شخص مرغوب من يوم ما وافقت إني أتخطبلك لكن مش الكلام اللي في خضوع هو اللي هيوضحلك إزاي أنت مرغوب..

فرك شعر رأسه قبل أن ينطق:

_بس أنا زهقت من الكلام اللي كله جد ده، ده مش أسلوب بجد أنا مش قادر أستحمل كده وبشوف كل صحابي مبسوطين من البنات اللي خاطبينهم وبيعملوا أكتر من اللي أنا طالبه بكتير..

قُلت بنبرة حادة:

_لا بقى يا مروان ده أنت اللي مزودها مش أنا..

سبق وقولتلك أنا مليش دعوة بحد، لو كل الناس بتعمل الغلط مش هتبعهم علشان أبقى زيهم

وخلاص كل واحد بيتحاسب عن نفسه..

وبعدين إيه طالب ومش طالب ده كلام يقوله حد ليه الحق في كده. لكن حقك أنت كخاطب إنك تيجي وتقعد معايا ونتعرف على بعض لا أكتر ولا

أقل.. وأنا شايفة أنك عطيت لنفسك الحق إنك تطلب حاجة أصلاً مش من حقك، وأنا عند النقطة دي بالذات ومش هقبل!

قال وهو ينهض بغضب:

_يعني أنتِ شايفة كده.. تمام أنا همشي!

•ثم قام وتركني..

كانت أول مشكلة بيننا وما يليها من مشكلات كانت كلها في ذلك السياق..

يحاول جلبي لمنطقته المليئة بالمخالفات والتعدي لحدود الله..

وأنا أسارع كل يوم في محاربة نفسي والهوى والشيطان وكبح لجام حبي له قبل أن يوقعني في التجاوزات!

يطلب مني أن أخرج معه في نزهة وحدنا!

فأرفض لعدم وجود محرم، فيصمم على أن ذلك من الطبيعي وليس فيه شيء وأن كل الناس يفعلون هذا...

فأرفض فأعود للمشكلات – من جديد – بيننا ويتدخل بها أهلي فيضغطون عليّ، فأتعرض لضغط منه ومن أهلي وأهله وقلبي!

• حينها أدركت أني أوقعت نفسي في فتنة كبيرة والصراع فيها أكبر، كيف سأنجو من كل ذلك وأنا لم أترك لنفسي حتى الوقت الكافي قبل أن أحبه، كيف سيتمكن عقلي من قيادة الأمور دون أن تكون مشاعري هي الطاغية على قراراتي، صراع بين أخلاقي ومبادئي وبين حب وضغط مستمر!

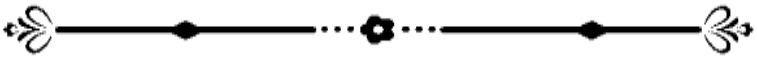

في النهاية كان من الصعب عليّ أن أصمد كثيرًا كما تنازلت في البداية تنازلت الآن...

وأصبح تنازلًا خلف تنازل وكلمة ثمّ كلمة ثم الخروج معه..

تعتقدين توقف الأمر على هذا، - بالطبع - لا...

أخرج معه فبهذا له الحق في اختيار ما سأرتديه حين أكون معه..

بحجة ماذا...؟!

بحجة أني خطيبته وله الحق في أن يتفاخر بي وبمظهري!

وبدأت مرحلة جديدة من الصراع!

حين خرجت معه ذلك اليوم وكنت أرتدي فستانًا زهريًا واسعًا وفضفاضًا ومعه خمار ساتر لجسدي...

حينها قال لي - بنظرة متفحصة - لما أرتديه:

_ ليلى هو أنتِ بجد هتفضلي لابسة الخمار ده لحد أمتى!

يعني أنا مش عارف أجبهالك أزاي من زمان، لكن حقيقي يعني شكلك مش حلو بيه، أنتِ لسه صغيرة ليه معيشة نفسك في جو العواجيز ده؟

قُلت بغضب أحاول إخفاءه:

_مروان أرجوك متفتحش الحوار ده تاني أبدًا معايا، لأن المفروض أن أنت اللي تكون فرحان بلبسي ده علشان المفروض برضو يعني إنك بتحبني وبتغير عليا وعايز تداريني عن عيون أي راجل.. وتكون عايزني أطول خماري أكتر أو ألبس النقاب مش أقلعه خالص!

وبعدين حد يقول لخطيبته شكلك مش حلو!

قال بارتباك:

_مهو علشان أنا صريح بقى حقيقي شكلك من غيره هيبقى أحلى كتير.. وبعدين يعني هي محتاجة كلام منا أكيد بحبك وبغير عليكِ بس برضو مش بالشكل اللي إنتِ عملاه في نفسك ده، أنتِ مش شايفة البنات حواليكي لابسين إزاي وعاملين إيه، يعني مش عايزة تبقي زيهم كده وتعيشي سنك.. وبعدين بقى أنا بحس إني ماشي مع جدتي مش خطيبتي!

قُلت بعصبية:

_ وأنت بقى حاطط عينك على البنات واللي عاملينه في نفسهم وواخد بالك أوي، مروان اسكت بجد اسكت علشان كلامك كله يضايق..

حاول إمساك يدي فأبعدتها عنه فقال:

_في إيه يا ليلى هو علشان بقولك على حاجات أنا ملاحظها من زمان وساكت عليها يبقى كلامي يضايق، أمال أفضل كاتم في نفسي وساكت يعني..

أنا من حقي أحس إني خاطب بنت جميلة ومهتمة بشياكتها ولبسها وعايشة سنها بجد.. أنتِ يعني مش غيرانة من كل البنات دي!

قُلت نافية:

_لأ مش غيرانة ولا عمري هغير منهم علشان أنا عارفة مين اللي صح ومين اللي غلط..

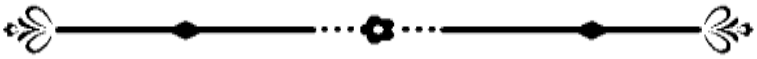

والمفروض إنك أنت اللي تغير..

بس اللي متأكدة منه دلوقت إنك محتاج تراجع نفسك وتراجع مبادئ دينك تاني وتعرف إن اللي أنا لبساه ده فرض وأن المفروض رجولتك تخليك راضي عن لبسي واحتشامي مش العكس!

زفر بغضب وقال:

_لاااا بقى ده أنتِ شكلك مش واخدة بالك إنتي بتقولي إيه!

التفت بوجهي الناحية الأخرى وقُلت:

_خلاص ولا أقول ولا تقول رجعني البيت أحسن..

قال بسخرية:

_أه منا لازم فعلاً أرجعك البيت لأني مش هينفع أمشي جمبك كده!

قُلت وأنا أفتح باب السيارة لأخرج منها:

_والله أنت شايف كده يعني، طيب تمام متبقاش تمشي معايا تاني نهائي ولو عايزنا نسيب بعض يكون أحسن وأبقى شوفلك واحدة من اللي عايشة سنها ولبسها على مزاجك!

•كنت في البداية صامدة، فانتهى حديثنا حينها كذلك ولكن بعد أن هدأت وعاد - من جديد - ببث اللين في حديثه للضغط عليّ، خضعت - من جديد - وأحببت أن أظهر أمامه في أحسن وضع وأفضل مظهر لأنال إعجابه دومًا دون أن تلفت عينه فتاة أخرى، وكذلك بحكم مجال عمله الذي يتعامل فيه دومًا مع نساء!

كان هذا التفكير مميتًا بالنسبة لي، فخضعت للمرة التي لا أعلم كم هي!
وبدأت في التنازل - خطوة خطوة - مرة أقوم بتقصير الخمار ليصبح هو والحجاب القصير واحد لا فرق بينهما، ومرة أخرى أضع القليل من مساحيق التجميل...

•حتى أصبحت لا أعرف نفسي من هي!

أنا لست ليلى التي أعرفها قبل تلك الخطبة اللعينة..

أنا لست ليلى التي كانت تعرف حدود ربها وتسعى في طريقه لتصبح أفضل من أمس، لكن الآن كل يوم تصبح أسوأ من أمس...

أنا لست ليلى التي كانت ترتدي الخمار وتتمنى أن تنال مرادها بارتدائها النقاب...

تتمنى زوجًا فيه من طباعها وأخلاقها والتزامها..

أنا لست ليلى التي كانت تقيم الليل تدعو الله، الآن أصبحت فتاة تقيم الليل على مكالمة لا تخلو من التجاوز على الهاتف مع شاب ليس من محارمها!

أنا لست ليلى التي كانت تصلي الصلوات في وقتها وتحافظ على وردها من القرآن...

أصبحت أخرى تتكاسل عن الصلاة وتؤخرها ولا يعرف طريق القرآن لها سبيلًا!

أنا لست ليلى التي كانت تتمنى أن تكون مع رجل يتقاسم معها الخطوات في طريقهم إلى الله، يعرف ما هي واجباته وواجباتها ويعينها على طاعة الله...
رجل فيه من الأخلاق ومعرفة الله ما يرمم بداخلها أي فتور وكسل عن الطاعات!
لا ليست هذه أنا، هو من ربح، هو من فاز، هو من غيرني وبدلني..
وأنا لم أكن ذكية كما قالت أمي، بل كنت ضعيفة أضعف من أن أقوى على مقاومة فتنة كهذه!
وأضعفت نفسي زيادة بترك قلبي في مدة من المفترض أنها للتجربة فقط ولا مساحة بها سوى للتعارف دون أن تتحكم بها المشاعر لتفسد أي إشارة من العقل للنجاة!
6/18 هو تاريخ مميز، كذلك علمت من إشعار الذكريات على الفيسبوك، عندما ظهر لي منشور كنت قد كتبته في ذلك اليوم منذ عام، هو التاريخ نفسه الذي ارتديت به الخمار وعزمت على أن أسير في طريق الصلاح لحالي مع الله..
كانت بداية لفترة من أعظم فترات حياتي، الفترة التي تعرفت بها على نفسي بعد أن كانت تائهة، الفترة التي شكلتني وشكلت وعيي الديني وقتها، كانت المدة التي عرفت فيها كيف تكون الطمأنينة..
الطمأنينة التي غابت عني الآن..

عندما ظهر لي ذلك المنشور، بكيت كما لم أبكِ من قبل، وكأنّ كل البكاء الذي كتمته في قلبي منذ يوم خطبتي قد حان وقته الآن، كل المشاعر السلبية التي كتمتها في قلبي منذ دخول مروان في حياتي قد ذهبت الآن..

بكيت بكاء مريرًا كادت أنفاسي أن تتقطع، إحساس بالغربة والعجز والندم...

نظرت لنفسي القديمة فلم أرَها، رأيت فتاة أخرى من صُنع شاب قد لعب بها مثل الصلصال لتكون له كيف يشاء..

بكيت على نفسي وعلى تهاوني وتجاوزي وتجرئي كل تلك الأيام الماضية، بكيت على تقصيري وذنوبي وأخطائي، بكيت على نفسي الضعيفة التي فشلت أمام أول اختبار من الله لها، بكيت على نفسي التي خضعت لغيرها أن يشكلها بما يناسبه... بدلاً من أن تختار هي مَنْ يناسبها، بكيت لأني لم أعرف كيف أتحكم في مشاعري وأتمكن من حظرها لوقتها المناسب!

بكيت وبكيت وقد افتقدت نفسي القديمة وأيام التزامي الأولى؛ ثمّ صليت ركعتين لله توبة وعزمت على ترك مروان دون محاولة أخرى قد تجعلني أتهاون وألين ثانيةً، لا أنا له ولا هو لي، لا أنا من عينته ولا هو من عينتي، لكنها كانت مجازفة مني...

وحمدًا لله على الإفاقة، حمدًا لله على النجاة من زيجة كانت ستحطم مبادئي وأخلاقي وتجعلهم يندثرون للأبد وبالتدريج، صليت استخارة في أمر تركي له...

وحينها فقط عادت لي الطمأنينة الغائبة التي لم أتذوقها منذ معرفتي به!
وأعلمت أهلي برغبتي في انفصالي عن مروان، مثلما توقعت كانت حربًا شديدة تشبه تلك الحرب التي خضتها معهم حينما ارتديت الخمار...
لكن وما الجديد، إن كنت قد تعودت على خوض صراعات عديدة معهم ومعه، فلأخُض حربًا في سبيل عودتي إلى الله وفي سبيل عودة نفسي لي ثانيةً، إن كان في كل الأحوال أخوض صراعات وحروب نفسية...
فلأخُضها في طريق عودة الطمأنينة، في الطريق الصحيح...
وكان فضل الله عليّ عظيمًا، إذا بي أشعر بالصبر والرضا والسلام النفسي، أشعر بالقوة على تحمل فقد ذلك الحب..
أشعر بالقوة على تحمل الحديث اللاذع والمناقشات والمشكلات الدائمة من أهلي لأعود له، وهبني الله الثبات واليقين والبصيرة...
وقد كان بفضل الله عليّ حينما تركته بموافقة أهلي أخيرًا، وعُدت لما كنت عليه من أخلاق ومبادئ.. عدت لخماري ولملابسي الفضفاضة ولصلاتي وقرآني.. بل جعلتني تلك التجربة أعلم لذة القرب من الله أكثر، علمتني كيف لطريق الله أن يكون غاليًا هكذا وكيف له أن يعطينا الطمأنينة والرضا، وقد قررت أن أتم حفظ كتاب الله..
هل يا تُرى إن لم أفق من تلك التجربة هل كنت سأسلك طريق حفظ القرآن؟ بالتأكيد لا..

الآن أرى الفرق والاختلافات وأحمد الله أنه منَّ عليّ وقد ختمت القرآن في عام واحد فقط بعدما تعرفت على مُحفظة قرآن يسرت لي الحفظ جدًا بفضل الله وأجازتني فيه وهي أستاذة...

بعد أن تعرفت عليها وأصبحت صديقة مقربة.. ما لم أكن أتوقعه أن تكون لقصتها وقصة زواجها فصل آخر من فصول الصراع مع المجتمع، حينما دار بيننا ذلك الحديث...

****

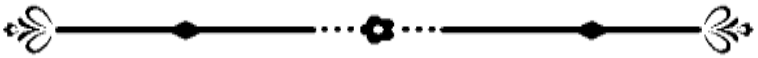

ملاحظة مجتمعية 4..

•خاتم الخطبة..

تلك الحلقة المعدنية التي تسمح للطرفين بالانسياق وراء مشاعرهم واتباعها بغير هدى، لكن الحقيقة ما خاتم الخطبة وفترة الخطبة سوى تجربة تُمكن للطرفين معرفة مدى التفاهم بينهما ومدى تقارب الفكر والغايات والأهداف، تسهل عليهما تحديد نسبة نجاح أو فشل تلك العلاقة التي تسير نحو بناء أسرة في المجتمع..

ما كانت تلك الحلقة المعدنية سوى وسيلة تجعلنا ننظر للطرف الآخر على أنّه شريك محتمل وليس مؤكدًا، وما فترة الخطبة سوى مدة تعارف وتجارب مع ذلك الطرف ليس أكثر ولا أقل، ذلك الطرف الذي نظن به سمات الشخص المناسب لنا ظاهريًا، يمتلك فرصة أكبر من غيره للخوض معه في تلك التجربة ومعرفة مدى صلاحيته لنفسنا وعقلنا واحتياجاتنا، يمتلك فرصة للاستمرار معنا بشكل دائم، وتلك التجربة والمدة الزمنية المحددة لا مجال بها لتفعيل المشاعر التي تلغي أي إشارة من العقل لفهم ذلك الطرف بشكل واقعي يجعلنا نتصرف التصرف الصحيح الذي لا ندم بعده، لذلك الأسلوب الأكثر حكمة في تلك المدة هي أن يتم استبعاد العاطفة، يكفي القبول والألفة وهي إشارات قوية وكافية، ويتم النظر بعين العقل والمنطق لدراسة الطرف الآخر جيدًا ومعرفة مميزاته التي نحتاجها وعيوبه ومدى

تأقلمنا عليها، العاطفة والمشاعر لن تنتهي لكن أن تأتي في وقتها خير من أن تسبق العقل فتصيب الإنسان بالأذى النفسي، ولذلك فإنّ كما هناك احتمالية على إتمام تلك العلاقة من الخطبة إلى الزواج وأن ينتقل الخاتم من الإصبع في اليد اليمين إلى الإصبع في اليد اليسار، هناك أيضًا احتمالية على نزع ذلك الخاتم بشكل نهائي، هي نسبة يتم تحديدها في تلك المدة فقط مع تفعيل العقل وتعطيل العاطفة مؤقتًا..

والجدير بالذكر أيضًا أنّ أكثر الذين تعاملوا في تلك المدة بعواطفهم ومشاعرهم دون الوعي بأساسيات تلك المدة، كانت مسببة لهم تأثيرًا سلبيًا فيما بعد، أو حتى بانتهاء تلك العلاقة قبل الزواج فقد يدخل الطرف منهم في حالة من اليأس والحزن الشديد..

فلما يغوص الإنسان بعاطفته داخل أمر احتمالية انتهائه واردة، حتى وإن كان غير ذلك...!!

فالعاطفة والمشاعر الجياشة ليست لتلك المدة المبنية على التجربة والحكمة أكثر..

المشاعر تعمي العين عن العيوب ولا تستجيب لكل نداءات العقل الواعي!

....

ثانيًا..

من أكبر المفاهيم الخطأ في مجتمعنا، هي المجازفة في تغيير الطرف الآخر بعد الزواج، خصوصًا في صفات وطباع ليست هينة...

لذلك فإنّ الخطبة ما هي إلا انعكاس مصغر للواقع الطبيعي للحياة بعد الزواج!

تقول إحداهن لك بنبرة الناصحة الأمينة "تزوجيه وغيريه بنفسك اجعلي منه خاتمًا في إصبعك بذكائك سيصبح مثل العجينة بيدك.."

تزوجيه ثمّ اجعليه اجتماعيًا ومتكلمًا، كوني ذكية حتى وإن كان رجلًا لعوبًا وخائنًا، واجعليه لا ينظر لغيرك..

شجعيه على الصلاة، شجعيه على العمل واجعليه طموحًا... وإلخ

أيًا من تلك العيوب التي من الصعب إصلاحها، كل تلك الصفات إن لم تكن في الرجل منذ البداية فلن تقدري على إيجادها فيه مهما كان، الرجل هو من يأخذ بيدك دينيًا ودنيويًا، هو المسؤول عن قيادة سفينة حياتكما، ولو حدث العكس فبذلك يكون قد فقد أهم صفة من صفات الرجولة والقوامة..

علاقة الزواج السليمة مثل سيارة يركب بها الزوجان، الزوج هو من يقود والزوجة بجانبه تساعده في معرفة الاتجاهات إن احتاج المساعدة، لكن في الأخير هو من يتولى القيادة...

•من يصممون على زرع فكرة التغيير بعد الزواج في عقلك بهدف أن يفرحوا بك كما يدّعون هم نفسهم أول من سينتقدون حياتك الأسرية بعد ذلك، هم نفسهم الذين لن ينصفوكِ بعد ذلك حينما تدركين أن كل تلك الأفكار كانت من نسج الخيال.. وهم!

حينما تكتشفين أن ذلك الزوج لم يتغير أبدًا رغم محاولاتك المستميتة لذلك، حينها أيضًا يعودون من جديد بدور جديد يقولون لك بتلك النبرة نفسها التي تحث على الصبر..

"لا بأس لا عليكِ اصبري لعل الله يهديه!"

"تعرفين نحن في مجتمع لا يعرف كلمة الطلاق!"

"ولمن ستتركين أطفالك؟"

"ولم العجلة، أنتما في بداية حياتكما... لعله يتغير مع الوقت"

والكثير من الأحاديث المتكررة التي تقال لكل امرأة لا تعيش في حالة ارتياح مع زوجها بسبب المجازفة من البداية والتأمل في تغييره!

والقاعدة تقول: "بقاء الوضع على ما هو عليه إن لم يَسُؤ أكثر"

والطبيعي أنّ الرجل في الغالب هو المسؤول عن القيادة الحياتية بكل أشكالها، هذه فطرته التي فطره الله عليها، مهما حاولتِ أن تعكسي الصورة لتتحكمي أنتِ كما قالوا لك "قودي لكن بذكاء"، لو أنك ذكية لغيرتِه دون أن يشعر أنك أنتِ مَنْ يتحكم لوجدت أن الوضع يسوء، وسيتحكم هو لكن بالعناد!

وستصبح الأمور أكثر حدة، والصفة التي لطالما كرهتِها فيه ستصبح مضاعفة نتيجة إحساسه بأنك تتعالين عليه بنصحك له، على الرغم من حسن نيتك في محاولة جعله على حال أفضل فقط!!

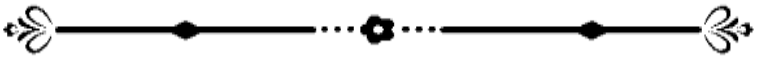

فنظرًا لتقصير طريق طويل من العذاب والمشقة، إن لم ترتاحي لأي من صفات شريك الحياة منذ البداية لا تجازفي على خوض العلاقة معه بأمل التغيير، لأنّ كما هناك احتمالية على تغييره أيضًا هناك احتمالية بنسبة أكبر على عدم التغيير!

لستِ تمتلكين ضمانًا على سهولة تغييره كما ترغبين!

لا يوجد رجل يتغير جذريًا، إن لم تكن تلك الصفات التي تحتاجينها به موجودة منذ البداية فليس وجودك ومحاولاتك هي من سيوجدها؛ فلنختصر الطريق على بعضنا البعض.

•كل طرف له احتياجات ومواصفات معينة فليبحث عنها كما هي حتى يجدها، لا أن يتقبل طرفًا بوضعه ثم يحاول تشكيله بما يرغب!

كما هناك عيوب وأخطاء يتسع لها التحمل والإصلاح، هناك أيضًا عيوب لا إصلاح لها مهما حاولنا.. ولكل إنسان طاقة وتحمل واحتياج يختلف من شخص لآخر، لنفترض أن س وص فتاتين

فمن الممكن أن تتحمل "س" عيوب لا تتحملها "ص"

ومن الممكن أيضًا أن تتحمل "ص" عيوب لا تتأقلم معها "س" نهائيًا

فلنحافظ على طاقتنا من إهدارها في غير موضعها، فلنحافظ عليها لنفسنا أو لأولادنا في المستقبل الذين يحتاجون طاقة أكبر للإصلاح والتربية السوية..

.....

ثالثًا..

يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : "من جاءكم ترضونه دينًا وخلقًا فزوجوه"

لم يقل الرسول مالاً أو غيره، بل ذكر أولاً الخلق والدين.

لا بأس بكل المواصفات الأخرى المشروطة لكل شخص فهي من كامل الحق له، لكن المقياس

الأول للاختيار يكون على أساس الخلق والدين، كذلك يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "فاظفر بذات الدين تربت يداك".

لأنّ الشريك الذي يعرف الله وحدود الله وشرع الله يسهل عليك تخطي متاعب الحياة، تضمن معه أن حتى لو لم تجد به ما تحتاجه فلن يظلمك أو يقسو عليك، تضمن معه حياة بطاعة الله حتى النهاية، تكون قد أنقذت نفسك من نصف مشاكل الزواج، لأنّ المرجع لكما هو دين الله، شخصٌ كهذا يعرف واجباته وحقوقه بعلمه لله فلن يطغى عليك..

•قبول الرجل على علاته الدينية بأمل تغييره كارثة فالرجل الصالح صالح من قبلك ولنفسه، والرجل الضال لن ينصلح بك أو لك، والأصل أن الرجل هو الذي يقوّم دينيًا ودنيويًا وليس العكس؛ ولأنّ الحياة قصيرة وما هي إلا رحلة إلى الآخرة مليئة بالفتن والمشقات والابتلاءات المهلكة للروح، فالأولى اختيار شريك يعين على كافة المستويات الدينية والدنيوية...

ليست الدنيوية فقط!

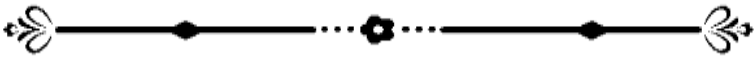

ما نفع أن ننجح في الدنيا معًا ونفشل في رحلتنا إلى الآخرة!

إن لم يكن هدفنا الأول في بداية العلاقة هو حبّ الله والسعي لرضاه فهي والله علاقة دنيوية فاشلة!

فليذهب قطار الزواج إلى الجحيم إن لم يكن رجلًا يتقي الله وهدفه الأول هو رضا الله، فمن لم يسعى لرضا الله لن يسعى لرضاكِ أبدًا..

فلا ضير إن صبرتِ عامًا أو خمسة أو عشرة، ولكن في النهاية اختاري من يوافق مبادئك وأفكارك ويطمئن قلبك، وتقر به عينك، ويستجيب لأهدافك ومسيرتك، فليست العبرة متى ستتزوجين إنما بمن ستتزوجين!!

وأخيرًا اختيار الشريك المناسب ليس بفراسة الإنسان وذكائه، إنما هو توفيق من الله يوفق إليه من يشاء، لكن -على الأقل- الحذر والتريث والوعي أسباب، وقبلهم الدعاء لله بأن يوفقه لشريك يعينه على الدين والدنيا ويكن له خير حبيب؛ كذلك كل الشهادات التعليمية والأموال والشروط والاحتراس عند اختيار الزوج لن تضمن للمرأة سعادتها واستقرارها أو حقوقها، كذلك جمالها ونسبها لن يؤثر في ذلك...

إنما الضمان الوحيد والأكيد هو أن يوفقها الله لزوج تقي نقي صالح وقوّام يعرف واجباته ومسؤولياته ويقدر قيمة المرأة جيدًا.

إنما هو توفيق من الله بابه الأول الدعاء وثاني أبوابه الوعي كأخذ بالأسباب.

القصة السادسة.. «وعي تسبيح»

"من تأنى نال ما تمنى"
"نهاية الصبر.. جبر"

•قرأت عبارة منذ مدة تقول: "كل شيء يأتي في الوقت الذي يراه الله مناسبًا لنا وتجهله محدودية بصيرتنا"

آمنت جدًا بتلك العبارة ولعلّ من كتبها جرب مفهومها كما جربتها أنا...

معايشة حقيقة كحقيقة الاستسلام التام لحكم الله البالغة أمر ليس بهين على العقل الضعيف للإنسان الذي لا يملك أي معرفة للمقادير الإلهية وخطط الله الواسعة في التدبير، لا يهون عليه شيء كإيمانه برحمة الله ولطفه بقلب يرغب ولا يملك أي حيلة، والحقيقة أن ليس هناك أعظم من اليقين في الله بأن ما يختاره للعبد هو الخير التام وحسن الظن به، بأن لكل حدث مهما كان صِغرُه عند الله له سبب يصب في النهاية لمصلحة ذلك العبد الذي يلجأ دومًا لله..

يقول الله -عز وجل- في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء"

حينما يحقق المؤمن ذلك اليقين وحسن الظن في قلبه رغم صعوبة تحقيقه والثبوت عليه ومحاربة الأحداث الحياتية التي تقذف به في أمواج اليأس، حينما يحقق ذلك رغم كل الصعاب ويستسلم للحكيم العليم ويرضى بالمحنة قبل المنحة وبالأخذ قبل العطاء وبالحرمان قبل الجود...

ويترسخ داخله الصبر على تأخير مبتغاه، حينها يكون قد خطى بقدمه على أولى عتبات الطمأنينة والرضا في الحياة واكتسب الحكمة الأعظم وهي اليقين في الله، فيشكر الله فيزيده الله من فضله إما باستجابة دعوته وإما بالصبر والسكينة لفقدها..

يقول الله -عز وجل-: "ولئن شكرتم لأزيدنكم"

فيدرك أكثر وأكثر أن بصيرته محدودة وقاصرة أمام حكمة الله وعلمه البالغ وأنّ الاستسلام

والرضا بأقدار الله هم الحقيقة التي يجهلها الكثيرون أو حتى يسهو عنها أحيانًا!

يختار الله لك دومًا الأخير والأفضل والأنسب رغم اختفاء أي إشارة توضح ذلك أحيانًا، فيراك أتصبر أم تجزع وعلى هذا تختبر إما مذؤوم أو مأجور، والأذكى من يعرف "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"

ويتدبر "والله يعلم وأنتم لا تعلمون"

•بينما كنت في غمرة تفكيري جاءت دقات متتالية على الباب لتخرجني من ذلك التفكير، فتحت الباب لأتفاجأ أنها ليلى..

قُلت في ترحيب وفرحة عارمة:

_ليلى مش معقول وحشتيني أوي أخيرًا افتكرتيني وجيتي..

فقالت بود وأسف وهي تحتضنني:

_والله ما نسيتك يا أستاذة تسبيح علشان أفتكر حتى حضرتك في بالي علطول لكن غصب عني بقى أنتِ أكيد عارفة الظروف اللي بمر بيها..

قُلت لها ونحن ذاهبان لغرفة المعيشة:

_عارفة يا حبيبتي الله يعينك وتعدي من المحنة دي بقى، يعني معقول لسه خطيبك وأهله بيحاولوا يرجعوكم مزهقوش من إصرارك على الرفض!

جلست على الأريكة وقالت بملامح حزينة:

_للأسف أيوة أنا مصممة على موقفي بالرفض وهما لسه بيحاولوا واللي بيتعبني أكتر هو محاولة أهلي كمان معاهم فبحس بضغط كبير عليا لكن بحاول أفضل على موقفي دايمًا، أنا ما صدقت إن ربنا نجاني من العلاقة دي، ما صدقت لقيت نفسي اللي تاهت مني من يوم ما عرفت الشخص ده، أنا كنت بضيع خطوة خطوة وأنا مش حاسة لولا لطف الله بيا واللي رجعني لطريقه من تاني وأدركت أن مش ده الزوج اللي هقدر أكمل بيه حياتي وأنا حاسة بأمان على كل أمور ديني ودنيتي..

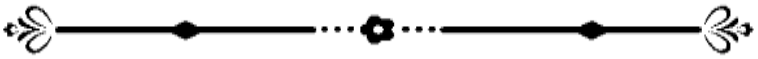

ربتت على كتفها وقُلت مؤكدة:

_عندك حق يا ليلى صدقيني أنا حاسة بيكِ جدًا وفاهمة موقفك وبأيد كل تفكيرك لأن التجربة خير دليل، يلا متزعليش نفسك إن شاء الله ربنا يرزقك بشخص يكون عوض لقلبك..

تنهدت بحيرة وضيق ثم قالت:

_مبقاش عندي أمل ألاقيه ولا حتى عارفة لما ألاقيه هعرف أن هو ده الاختيار الصح إزاي، خايفة من تاني أواجه صدمة.. ولا عارفة المفروض أختاره على أنهي أساس؟!

تنفست الصعداء واعتدلت في جلستي، ثمّ نظرت لعينيها وقُلت:

_بصي يا ليلى..

الاختيار السليم في الفترة دي أو حتى النظرة الصح للشخص اللي قدامك هتيجي من نظرتك السليمة لنفسك ومعرفتك باللي أنتِ عيزاه..

ولما تعرفي نفسك هتعرفي تختاريه وهتعرفي أنه هو ده الشخص الصح من أول مرة تشوفيه..

وعلشان كده بنصحك لما تيجي تختاري متبصيش تحت رجلكِ..

وألغي القلب وشغلي عقلك وبس في الفترة دي..

لأن أنتِ مش بس بتختاري شريك لحياتك وبس لأ.. لازم تفكري ترضي الشخص ده يكون أب لأولادك ولا لأ؟!

هل ولادك في المستقبل هيكونوا راضيين وفخورين بيه وهيكون ونعم الأب ليهم ولا لأ؟!

زي ما بنرضى لنفسنا بشكل ومواصفات وطباع وتفاصيل في الشخص اللي قدامنا أولادنا من حقهم يكونوا راضيين..

لذلك زي ما بتختاري لنفسك بعناية اختاري ليهم هما كمان بعناية أوي، لأن ولادك مش هيلوموكي لما تختاري أبوهم وسيم ولا قصير ولا طويل ولا تعليمه أي..

إنما هيتعبوا كتير ويعانوا أكتر لما تختاريه شخص غير مسؤول أو معندهوش أخلاق أو معرفته بدينه معدومة أو مش حنين وطبعه مش لين أو بخيل فلوس ومشاعر وقلبه قاسي عليهم وعليكِ...

ثمّ أكملت بهدوء:

_اسعي تختاري لأولادك اختيار يراضيهم زي ما بتختاري لنفسك اختيار يرضيكِ..

اسعي للحظة تشوفيهم فيها مستنيين أبوهم بفارغ الصبر يرجع البيت مش يبقوا مبسوطين أنه خرج علشان يحسوا أنهم بيتنفسوا..

اسعي تختاريلهم حد يكون أمين عليكِ وعليهم وهمه الأول والأخير يعدي بيكم من رحلة الحياة الفانية للآخرة بكل سلام وأمان وهو فعلاً عرف يكون زوج وأب وراجل عارف معنى القوامة بكل تفاصيلها..

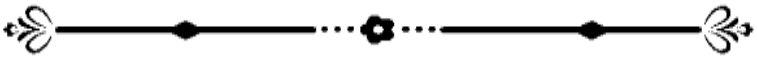

أوعى تهملي صفة الأبوة وقت اختيارك لأنها من أهم الصفات اللي هتحتاجيها أنتِ وأولادك.

فاهمة قصدي؟!

قالت ليلى بنبرة حزينة:

_أنا فاهمة حضرتك جدًا، بس للأسف كلّ حاجة فيها ضغط نفسي عليا مش عارفة أتخطى صدمتي في خطوبتي من مروان ولا أتخطى كلام أهلي ولا حيرتي في اختياري الجديد حاسة إن كل حاجة صعبة!

ربتت على يديها بِود محاولة تخفيف الألم عن قلبها وقُلت:

_الاختيارات كتير منها اللي ممكن يعدي وميفرقش معانا نتيجته هتأثر علينا يوم ويومين لكن في اختيارات غلط ممكن ندفع تمنها عمرنا كله دينيًا ودنيويًا..

الموضوع مش سهل خالص يا ليلى، الجوازة اللي مفيهاش عقل قبل القلب فيها كسر للإنسان من كل نواحي الحياة وتحطيم للزوجة وللأولاد وهدم بيت..

ده الاختيار الوحيد اللي مينفعش يكون على أي أساس ولا أساسيات المجتمع اللي معظمه بيفكر غلط، ده اختيار لحياة كاملة هيترتب عليها كل تفاصيل حياتك.. ده مش شنطة ولا جزمة هتشتريها ولو معجبتكيش أو مطلعتش مقاسك هترميها وتبقي تجيبي غيرها لأ..

مش بمنتهى البساطة دي الزواج مش مغامرة ولا حظ ولا زي ما تيجي وخلاص والتسرع فيه تحديدًا هيوقف حياتك كلها، فمتتأثريش بكلام حد ولا تحاولي تختاري حاجة مش متوافقة مع أهدافك ولا متكافئة مع طباعك علشان تواكبي المجتمع والأهل وخلاص، ثمّ أكملت محاولة لبث الطمأنينة في قلبها:

_متقلقيش عايزاكِ قوية وعارفة نفسك أكتر وبإذن الله هتلاقيه وهيكون فيه كل ده وأكتر.

هزت رأسها مبتسمة وقال:

_يا رب يا أستاذة.. ألا صحيح فين أرين بقى وحشتني جدًا الأروبة دي مشوفتهاش من زمان

قُلت معاتبة إياها بمزاح:

_هي لو وحشتك بجد كان زمانك جيتي من زمان يا ست ليلى.. ده أنا مش فاكرة آخر مرة جيتي فيها دار التحفيظ كانت أمتى، عالعموم أرين نايمة والحمد لله أنها نايمة خلينا نعرف نقعد شوية من غير الزن بتاعها.

بضحك قالت:

_زن أيه بس دي حبيبتي وزنها على قلبي زي العسل.. صحيح يا أستاذة قوليلي هو يعني أيه معنى اسم "أرين" فضولية بقى ولازم أعرف.

ابتسمت وقُلت:

_"أرين" معناه ابتسامة المؤمن عند دخوله الجنة..

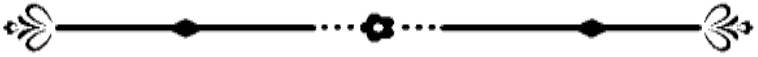

أبدت إعجابها الشديد فقالت:

_الله ده معناه جميل أوي ويا ترى اخترتي الاسم ده أزاي بقى خصوصًا أنه نادر أوي

قُلت بابتسامة خجولة:

_لا ده بقى مكنش اختياري ده اختيار بباها..

بابتسامة رقيقة قالت:

_ما شاء الله ربنا يبارك فيها ويجعلها من الذرية الصالحة..

قُلت بهدوء:

_يا رب.. يا رب يا ليلى، أرين دي هي أحلى حاجة حصلت في حياتي بعد بباها.. جات بعد تعب كبير أوي واصطدام مع كل ثوابت الحياة الوهمية واعتقادات المجتمع اللي مبتتغيرش هي الحاجة الوحيدة اللي حسستني إن تعبي وكل محاولاتي مراحتش هدر وإن فعلاً اللي بيصبر بينول، وعلشان كده بقولك إن فعلًا لازم تصبري ومتيأسيش والأهم متتأثريش بآراء المجتمع اللي كتير منها بيتنافى مع المبادئ السليمة والتفكير العقلاني..

قالت بيأس:

_عندك حق بس أنا تعبت أوي والله من مواجهه تفكير أهلي وكل اللي حواليا، المشكلة الأكبر أن كل الناس دي مش بس معترفين بأن تفكيرهم غلط لأ ولازم يقنعوكي بيه ويخلوكي نسخة منهم وإلا تبقى كده كأنك أجرمتي..

قُلت لها بتأكيد:

_عارفة يا ليلى ده المنتشر والمألوف والسائد بالنسبة لكل المجتمع لكن للأسف مش هو المنطقي ولا الطبيعي أبدًا بس للشخص اللي عايزة يتحرر من قضبان جهل العادات والتقاليد لأن مش كل العادات دي في صالح المجتمع بس، للشخص اللي هيركز ويبص كويس هيكتشف أن مش المألوف ده هو الصح..

وأن بالتفكير المنطقي والعقل هيكون بيخالف كل ده وبضمير مرتاح أوي..

نظرت إلى الفراغ قائلة:

_بس كل ده مش ساهل أبدًا، دي رحلة كلها مخاطر على النفسية.. كلها أذى نفسي، المجتمع اللي مش شايفك زيه مش هيسيبك من غير ما يأذيكي علشان بس أنتِ مختلفة!

ابتسمت وتذكرت ما عانيته من خمس سنوات على أثر ما ذكرته ليلى!

وقُلت:

_عارفة يا ليلى أنا اتجوزت أبو أرين إزاي!

قالت بخجل مغلف بالفضول:

_بصراحة لأ بس طول الوقت نفسي أعرف.

أومأت لها قائلة:

_طيب يا ست أنا هحكيلك قصتي بقى اللي كانت مليانة بمواجهه المجتمع وأذاه ليا!

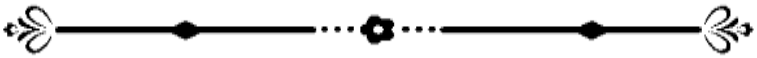

قالت بإنصات بالغ:

_يا ريت أحكيلي..

•عدت بذاكرتي لتلك الأيام التي كانت آخر عهدي بالحزن بعدما أتى ربيع الحب على حياتي في هيئة إنسان...

كان الوعي والنضج هما سبب شقائي، كلما زاد وعي الإنسان وإدراكه للأمور كلما زادت متاعبه، معظم المفكرين والفلاسفة اتفقوا على ذلك، فكما قال برتراند راسل "الوعي يخلق حالة من الفوضى في حين أن الجهل يوفر لنا استقرارًا نسبيًا"

كذلك قال آرثر شوبنهاور: "الوعي يجعلنا غرباء في عالمنا، فالجهل يوفر لنا مأوى ومألوفية"

كانت مشكلتي الأعظم هي إدراكي الزائد ومعرفتي الأعمق بالأمور وعدم مجاراتي

لأفكار المجتمع التي لا تتماشى مع فكري وطباعي، وبسبب هذا كنت أشعر بالغربة بين الكثير ممن هم مختلفون عني، كنت أتساءل أحيانًا عما إن كان قد خيرني الله بين أن أصبح فتاة عادية كمثل بعض فتيات جيلي الكثيرين، أن أصبح مثلهم في مستوى الوعي والتفكير وأن أحظى بسعادة مؤقتة أو حتى دائمة لكنّها تخفي الكثير من المتاعب بسبب سوء فكرهم واتباعهم لآراء مجتمعهم!

أو أن أصبح بنفس عقلي وفكري ونضجي، ولكن أخوض صراع مواجهة المجتمع وتفكيره وحكمه عليّ وأنا لا أعلم متى تنتهي هذه الحرب، أتأكد من الفوز بنفسي والنجاة لكن بعد أن أكون قد استنزفت مشاعري وطاقتي في صد كل الإهانات!

سعادة الجهل أم مشقة الوعي؟!

أعود بعدها لأختار ما اختاره الله لي بنفس راضية تمامًا، أختار مشقة الوعي وأنا أدعو الله أن ينهي هذه الحرب بالفوز ليس بذاتي وحسب إنما بانتصار حقيقيًا أستطيع أن أنظر له وأنا على يقين بأنّ صراعي لم يذهب سدى!

وقد كان، لم يخيّب الله ظني حينما عوضني خير تعويض عما صبرت..

•لم تهدأ الحياة من حولي بعد أن تزوجت صديقتي منار، كانت كل هواجس منار متعلقة بمسألة سفرها مع رجل لم تتعرف عليه جيدًا لتأمن على نفسها معه، لكن ما لم يكن في الحسبان هو أن يسافر ذلك الزوج وحده ويتركها مع أهله لتصبح في علاقة زواج مع وقف التنفيذ!

كالكثير من تلك الزيجات الغريبة التي يترك بها الزوج زوجته بحجة العمل وجمع المال ويتركها كالخادمة في بيت أهله تتعرض فيه لكل المضايقات والإهانات وغيره دون رجل يكون لها سندًا يدافع عنها يحتوي حزنها وألمها وتعبها..

أهذا هو السند الذي أرادوه لها أهلها حينما دفعوها للزواج بحجة أن يصبح لها زوج!

زوج على الأوراق فقط!

لم تتغير حياتها كثيرًا بعد الزواج مثل قبله، الفرق فقط هو انتقالها لبيت جديد مع أناس جديدين لا تعرف طباعهم وسلوكياتهم وتحاول التأقلم...

بالإضافة إلى أنّه تغيرت نظرة المجتمع لها بعد أن كانت فتاة متأخرة في الزواج، وتُلقب بكل

الألقاب السخيفة إلى أنها أصبحت امرأة متزوجة بغض النظر عن وجود زوجها!

•كانت الأيام ثقيلة على روحي، فقد زاد الوضع سوءًا بالضغط عليّ من جميع الجهات..

مر عام آخر أتممت فيه الرابعة والثلاثين من عمري، زادت الأقاويل والنظرات والتعليقات، وامتنعت من الخروج للمناسبات..

هذه تنظر لي نظرة شك وخوف وتبعد نفسها وزوجها عن أي مكان أتواجد فيه خوفًا من أن أسلب منها زوجها بما أنّني امرأة عازبة...

ولا تعلم أن مبادئي وأخلاقي وديني ونضجي لا يسمحون لي بتلك القذارة من الأفعال!

ثمّ على ماذا تخاف، على هذا الرجل الأصلع ذي البطن المنتفخ شبرًا أمامه وأسنانه التي لم تُغسل منذ أن كان في العاشرة من عمره تقريبًا، يرتدي سلسالًا في عُنقه ويتحدث بطريقة سائقي سيارات المواصلات العامة..

وهذه أيضًا تنظر لي بنظرات شماتة، تتكبر وتزداد غرورًا أمامي وتتظاهر بكل مظاهر الحب لخطيبها وتمدح به، لا تُتاح لها أي فرصة إلا وتحاول إغاظتي وإظهار خاتم الدبلة في وجهي..

ولا تعلم أني لو أردت الخطبة والزواج ووافقت على أي شخص مما رغبوا بالزواج مني لكنت

الآن أمًا لفتاة في عمرها!

لكن ما أنا فيه الآن كان بإرادتي وباختياري ولم يُفرض عليّ أبدًا، وقد نسيت أن الله هو مَنْ يرزق ويعطي وأنه قادر على حرمانها منه في أي لحظة..

رُزقت بالخطبة والزواج لكنّها للأسف لم تُرزق بقلبٍ سليم وعقل ناضج!

أما هذه، ففي كل مرة تجمع أبناءها أمامي وتتحدث عن فخرها بهم وعن زوجها وعن قصة حبها العريقة وعما يفعل معها ويحاول إرضاءها ولا تنسى أن تضع في نهاية حديثها بعض العبارات التي تصحب نظرات شفقة وعطف وكأني أنصت لها وأنا أقوم بتقطيع شراييني من الحزن على حالي!

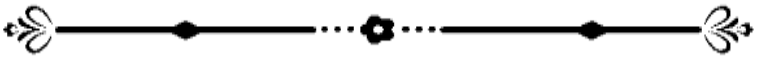

وعلى النقيض امرأة أخرى تخاف الحسد كلما قابلتني تظهر لي كيف أنّ الزواج فخ كبير، وأنّ الرجال كلهم أغبياء وعديمو المشاعر، وبأنّ ما فعلته أنا هو عين الصواب وتستمر في نصحي ألا أتزوج أبدًا..

أأتقبل من تراني أموت حزنًا لعدم الزواج أم هذه التي تفهم أنها بذلك ذكية، وتمنعني من حسدها

وأنا التي لا أتذكر متى هي تزوجت من الأساس حتى أحسدها على زواجها!

أما هذه السيدة التي في عمر أمي والتي لا تنفك عن قول تلك العبارة في كل مرة تقابلني "هنفرحوا بيكي أمتى بقى؟"

في كل مرة أحاول جاهدة أن أكتم ذلك الرد عنها "روحي يا طنط سلكي شعر بنتك من أيد جوزها الأول وبعدين نبقى نشوف الموضوع ده"

وغيرها الكثير والكثير من المواقف التي تحمل كل علامات الانتقادات والكلمات اللاذعة والنظرات الشامتة وغيرها المشفقة من بعض النساء الحيزبونات المتطفلات!

كأي فتاة مثلي تأخرت في الزواج سواء بإرادتها أو بظروف فُرِضت عليها، تصارع وتحارب نظرة المجتمع لها كل يوم، ما كان سبب لتأخر زواجي هو نفس الميزة الجيدة والتي قد غابت عن معظم فتيات جيلي هو أنني كنت على فهم جيد لذاتي وأعرف جيدًا ما أُريده، أُجيد تحديد اختياراتي وأهدافي فكانت تلك الصفة سلاحًا ذا حدين، لذلك لم تُعطلني تلك النظرة العقيمة للمجتمع، وقاصرة الفهم والوعي عن مواصلة حياتي وتطوير ذاتي أكثر..

وكان من أفضل ما رزقني الله به هو الرضا واليقين، فأخذت منحىً آخر في حياتي وبدأت في حفظ القرآن أولاً... ثمّ بعد أن أتممت الحفظ مَنَّ الله عليّ إذ أصبحت ممن تعلموا القرآن وعلموه لغيرهم فعملت في تحفيظ القرآن للأطفال..

طورت من ذاتي على كافة المستويات الدينية والعلمية والثقافية، قرأت العديد من الكتب في الفلسفة وعلم النفس والتنمية البشرية، وبادرت بتعلم لغة جديدة فاخترت الإيطالية..

ولأنّ يقيني بالله بأن أصبح زوجة وأمًا في يوم من الأيام كان أقوى، فبدأت في تعلم أساسيات التربية للأطفال من خلال "الكورسات" وغيرها الكثير من "الكورسات" الخاصة بالزواج والتأهيل له...

لم أجلس مكتوفة الأيدي وأستسلم للحياة، بل كان حبي لذاتي أكبر من أن أعلق سببًا للسعادة على شرط واحد!

وفي الوقت نفسه كان يقيني بالله غلب كل الأسباب المنطقية، فكان تعلقي بالله أعظم في أن أكون زوجة لرجل صالح يشبهني ويمكنني أن أضع رأسي على كتفه وأنا مطمئنة؛ مهما بلغ اكتفاء المرأة بذاتها لن تصبح في غنى عن شخص واحد تستطيع أن تشعر بالأمان في قربه، أن تستأنس به ومعه، أن تضع يدها بين يديه ولا تضطر للبحث عن يد أخرى لتواسيها، أن تجد فيه قلبًا حانيًا عليها، عقله بجوار عقلها وقلبه مربوط بقلبها، يد تعين، وروح تطمئن.. أن تجد من يفهم ويهتم، أن تجد للأُنس معنى بحضوره فقط!

يقول المنفلوطي: "فلا أحب للمرء من أن يجد إلى جانبه جليسًا يستطيع أن يسكب نفسه في نفسه ويفضي إليه بسريرة قلبه"

رغم كل إيماني بهذا لكن لم يرغمني احتياجي لذلك في أن أرمي بنفسي للزواج من أي رجل ممن لا يشبهونني أبدًا. كان أسهل عليّ أن أقضي حياتي بأكملها وحدي على أن أسقط في بؤس علاقة فاشلة ممن أراهم كل يوم أمامي..

لكنّ الله لم يضيّع يقيني ولا صبري طوال تلك السنين، لم يضيّع الله دعائي ويدي التي مُدت له في كل ساعة ترتجي بها الاستجابة..

إلى الله رفعت عيني وقلبي وكفي وكل الكلام ولم يخيّب الله رجائي..

كما يقولون للإنسان نصيب من اسمه، فكان لذكر الله والتسبيح نصيب كبير من أثر استجابة الله لدعائي، حينما قدّر الله لي لقائي بونيس العمر وشريك الحياة..

حينها قد أتت فتاة بعمر سبع سنوات لتحفظ القرآن في دار التحفيظ التي كنت معلمة قرآن بها... ومن هنا بدأت الحكاية!

•قد فطرنا الله كنساء على حبّ الأمومة، وقد كانت تلك الغريزة داخلنا قوية جدًا، فكنت شديدة التعلق بالأطفال، لكن فريدة لم تكن كأي طفلة كانت الأحب والأقرب لقلبي..

كانت فتاة جميلة وذكية ومتقنة للحفظ ومجتهدة، تمتلك خفة دم وأسلوبًا مرحًا جدًا، كما كانت فتاة عقلها يسبق سنها وتستطيع أن تُجاري أي

حديث بما يُشعر من أمامها أنه يحاور فتاة تجاوزت العشرين من عمرها مثلاً رغم أنها في الحقيقة لم تتجاوز العقد الأول من عمرها حتى، كما جمعتني بوالدتها علاقة طيبة وقبول متبادل ومن هُنا زاد تعلُقي بفريدة وزاد تعلُق فريدة بي..

كانت علاقة هكذا مختلطة ما بين أني أشعر بها كابنة لي وما بين صداقة بيننا وملاطفة وأحاديث كثيرة وأهداف..

تحكي لي يوميًا عن خططها وإنجازاتها عن كل شيء، كُنت أنصت لها كما لو كانت ابنتي..

أشاركها كل الاهتمامات وأضيف على حفظها للقرآن تعلم أساسيات في السيرة والفقه بشرح بسيط يناسب عقلها واستيعابها..

كذلك كانت متعلقة بشدة بأسلوبي في سرد قصة كل يوم عن موقف في حياة الرسول..

قُلت لها وقد انتهيت من سرد قصة الصحابي سواد بن غزية مع الرسول بالاستعانة إلى أنشودة "أروي لكم عن قصة للمصطفى إذ قام يومًا للجهاد منظمًا"..

قُلت مبتسمة:

_شوفتي قد أيه يا فريدة الرسول صلى الله عليه وسلم كان متواضع ومتسامح وقد أيه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم كانوا بيحبوه..

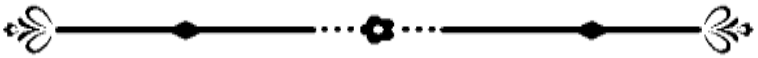

قالت ببراءة:

_أيوا وأنا كمان بحبه أوي.

أمسكت يدها بحُب وقُلت:

_كلنا بنحبه يا فريدة ربنا يرزقنا رؤيته وشفاعته..

قالت بحماس:

_يا رب يا ميس تسبيح.. أنا هبقى أحكي القصة دي لماما ولخالو بس هما أكيد يعرفوها.

قُلت لها باهتمام:

_حتى لو يعرفوها أبقي أحكيهالهم تاني بطريقتك الجميلة شبهك دي.

أومأت بخجل وقالت:

_حاضر.

صمتت لثوانٍ ثم أردفت:

_تعرفي يا ميس حضرتك شبه خالو أوي.

قُلت باستغراب ممزوج بضحكة:

_شبهه إزاي يعني؟

قالت ببراءة:

_يعني بتتكلمي زيه وبتقولي كلام شبه كلامه، وبتحكيلي قصص بنفس أسلوبه وبحس أنكم زي بعض في كل حاجة.

ابتسمت من حديثها العفوي وقُلت لها:

_يظهر بقى أن يخلق من الشبه أربعين ده مثل حقيقي ولا إنتِ إيه رأيك؟!

قالت متسائلة:

_يعني إيه المثل ده؟!

ضحكت وقُلت لها:

_طيب تعالي أحكيلك تاني!

.....

نسخر أحيانًا من المشاهد السينمائية التي نراها تُحطم كل درجات الواقعية لتُظهر المصادفة بأبهى شكلٍ، فنقول يا للمصادفات أيعقل أن يحدث هذا..

لكن ما حدث معي كان نبذة بسيطة عن مشهد من تلك المشاهد التي يتحكم بها القدر، الحقيقي أنّ الحياة حينما تريد إسعادك تُسقط جميع التوقعات والأسباب المنطقية لأجلك..

يوم السبت الموافق ٦/٦١

ذلك التاريخ كان يوم اختبار لجميع الحُفاظ ولجميع الأعمار في دار التحفيظ التي أعمل بها، ومن المُهم حضوري أنا وجميع المُعلمات في العاشرة صباحًا، لكنّني قد أفقت من النوم متأخرًا قبل الموعد بنصف ساعة، قُمت في عجلة من أمري وجهزت نفسي للخروج في ربع ساعة فقط، ارتديت ملابسي وخرجت دون أن أفطر حتى...

كان النوم ما زال عالقًا في عيني يبدو أنّ هذه المرة الأولى التي يؤثر السهر فيها على أداء مهامي..

أردت أن أفيق، فذهبت لأقرب "كافي شوب" لطلب القهوة بسرعة لأشربها في الطريق لعلّها تعمل على طرد النوم والكسل..

طلبت من العامل وانتظرت مجيء طلبي وأنا أنظر في الساعة التي تلتف حول معصمي، وعندما جاء العامل بالقهوة فتحت حقيبتي؛ لأخرج ثمنها وأذهب لكن الطبيعي في تلك الظروف التي يكون بها المرء في حالة تأخير ويستعجل للوصول تأتي كل الأشياء تعارض استعجاله ووصوله ولا تُسعفه أبدًا، ظللت أبحث عن محفظتي ظنًا مني أنها بداخل الحقيبة وأنا لا أراها فوضعت حقيبتي على منضدة قريبة؛ لأبحث بتفحص أكبر، لكن الحقيقة أني قد نسيت محفظتي في البيت عندما خرجت باستعجال!

لم أكن أعلم أنّ هناك عيونًا لشخص ما تراقبني وأنا أبحث في الحقيبة..

في تلك اللحظة التي تأففت بها في حرج من ذلك الموقف أتى صوتٌ من ورائي وقال:

_أمم تقريبًا نسيتي فلوسك في البيت.

عندما التفت له أكمل:

_ مفيش مشكلة أنا ممكن أحاسبلك!

كان شابًا طويلًا يرتدي نظارة سوداء تُخفي عينيه وقميصًا أبيض وحول معصمه ساعة فضية، به وسامة تستطيع ملاحظتها من أول نظرة، غضضت بصري عنه سريعًا، وقُلت بحرج وأنا أنظر للأرض:

_لا، لا شكرًا أنا هكلم حد من البيت يجبلي الفلوس.

قال وهو ينظر لكوب القهوة:

_هتكون القهوة بردت..

عادي مفيش مشكلة الناس لبعضيها وبعدين شكلك مستعجلة مش لازم تتأخري عن كده..

عُدت لأرفض مساعدته من جديد في حرج أكبر فقُلت وأنا أخرج هاتفي:

_لا صدقني مفيش داعي شكرًا لحضرتك.

• ثم ابتعدت قليلاً وأخرجت هاتفي لأتصل بأمي كي ترسل لي أي مبلغ بالتحويل المالي..

انتهيت من المكالمة والتفت فلم أجده لكني وجدت العامل يقول لي:

_اتفضلي القهوة.

الأستاذ اللي كان هنا حاسبلك عليها وخرج..

وقفت في حرج بالغ وامتنان في آنٍ واحد، أخذت كوب القهوة وخرجت فلم أجده بالخارج..

فأسرعت الخُطى نحو الدار بعدما كان قد فات عشر دقائق من الموعد المحدد.

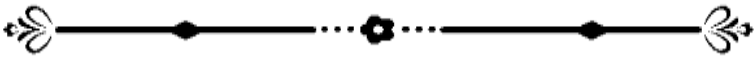

"الأقدار أقوى من المصادفات، المصادفة حدث عابر يثير الدهشة يتكرر مرتين وربما ثلاثًا.. لكن القدر يأتي بقوة لا يتكرر، بل يطول ويدوم ويسكن في ثنايا القلب يغمُره ويُعمّره بالنور.."

•تمر أيامي كما هي قد اعتدت كل أوضاع الحياة، تمر على المرء فترات يظل يتخبط بين مسار وآخر يتعرض لكل الأزمات والحالات النفسية السيئة، ثمّ بعد ذلك يصل لمرحلة من الاستقرار في نفسه، قد عاش ومرّ بكلّ التجارب وسمع من الأحاديث المتكررة ما يكفي فماذا بعد!

لا يوجد؛ هنا فقط يكون قد بدأ رحلة ثانية من الهدوء... يقولون أيضًا عندما تمل من انتظار الأشياء وتزهد بها تأتيك هي باحثة عنك..

• بعد أسبوع، خرجت من المنزل وحدي..

ولأني كرهت التجمعات النسائية، كانت الأوقات التي أقضيها مع نفسي وأنا أتمشى بالنادي من أحب الأوقات لقلبي، أقرأ كتابًا جديدًا أو يكفي أن أنفرد بحالي..

• كنت أتمشى حتى سمعت صوت فريدة تناديني من بعيد..

.....

•في حديقة النادي تجلس هند ويونس بينما فريدة تلعب بعيدًا عنهما.

قالت هند وهي تنظر حولها:

_الجو جميل أوي في النادي النهار ده، يا رب تفضل تخرج معانا بقى وتبطل الحالة الانطوائية اللي أنت فيها دي من وقت ما رجعت من السفر..

قال يونس بهدوء:

_ولا حالة انطوائية ولا حاجة أنا حقيقي كنت تعبان من الشغل ومن السفر وكنت محتاج أرتاح شوية..

قالت هند بحُب:

_ربنا يريحك دايمًا يا حبيبي بس أنت عارف بقى فريدة بتحبك ومتعلقة بيك أزاي وعايزاك تخرج معاها كل يوم.. حقها بقى ما بتصدق تشوفك كل سنة مرة ولا أيه.

بضحكة قصيرة قال:

_غصب عني حقيقي نفسي أقعد هنا وأستقر في بلدي بس غصب عني أنتِ عارفة أنا بحب شغلي قد إيه!

قالت هند بنظرة ذات معنى يعرفها هو جيدًا:

_عارفة يا حبيبي ربنا يعينك ويوفقك دايمًا وتلاقي اللي تخليك تحبها أكتر من شُغلك وتقعد في بلدك علشانها بقى لو مكنش علشاني أنا وفريدة!

قال بضحكة ساخرة:

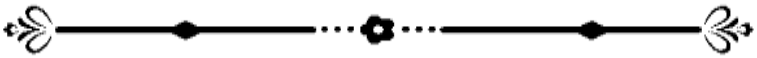

_ألاقيها بقى أو ملاقيهاش خلاص أنا حاسس إني يئست من البحث عن الشخصية المفقودة اللي في دماغي أنا وبس!

ثم أردف قائلاً:

_وبعدين يا حبيبتي أنتِ عارفة أنا بحبك أنتِ وفريدة أزاي.. وبعدين منا هقعد معاكم أهو لسه بدري ده أنا هخلي فريدة تزهق مني!

تنهدت بحيرة وقالت:

_تعبتنا معاك يا يونس والله أحنا بس لو نفهم دماغك دي فيها أي كنا ارتحنا!

وبعدين فريدة عمرها ما تزهق منك ده روحها فيك وبتعشقك زي عينيها.

قال بهدوء:

_بتعشقني أيه بقى ده أنا بقيت في قلبها المركز التاني بعد ميس تسبيح اللي صدعتني بيها.. إنتِ لازم تبدئي تغيري بقى علشان دي بقت شريكتنا كلنا في حُب فريدة..

بضحكة قالت:

_يا سيدي أنا موافقة هي ميس تسبيح تتحب جداً فعلاً..

قال وهو ينهض ناظرًا نحو فريدة:

_طيب يا ست أنا هقوم أنادي على فريدة بقى كفاية لعب كده وحشتني.. بقى دي اللي بتحبني سيباني ومن وقت ما وصلنا وبتلعب بعيد عني..

هزت رأسها بابتسامة وقال:

_طيب.

ذهب يونس لمناداة فريدة فركضت إليه واحتضنته وقالت بدلع طفولي:

_أنا عايزة شكولاتة بقى.

نظر لها يونس وقال بتفكير مصطنع:

_ طب أنا هجبلك شكولاتة بس هاخد إيه في المقابل؟!

قالت فريدة بتفكير:

_أمم مش عارفة!

قال يونس بحُب ومزاح:

_ممكن أخد بوسة؟!

ضحكت فريدة بخجل فقبلها يونس من وجنتيها ثم أمسك بيدها قائلًا:

_يلا بينا يا أحلى فريدة في الدُنيا..

وسارا معًا لشراء الحلوى وفي أثناء سيرهما رأت فريدة تسبيح فأفلتت يدها من يد يونس وهتفت باسمها بصوت عالٍ بعفوية ولهفة:

_ميس تسبيح.. ميس تسبييح

ثمّ ركضت نحوها..

.....

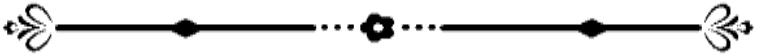

•التفت خلفي فرأيتها تركض نحوي وهي تضحك وتلهث من شدة الركض فاحتضنتها وقُلت لها:

_فريدة حبيبتي عاملة إيه؟

أمسكت فريدة بيدي وقالت:

_ الحمد لله يا ميس وحشتيني أوي.

قُلت لها بمرح:

_لحقت أوحشك يا بكاشة وأحنا لسه شايفين بعض من يومين.

ضحكت فريدة وقالت:

_بتوحشيني علطول يا ميس.

احتضنتها بحُب وقُلت لها:

_يا حبيبة قلب الميس وأنتِ كمان.. قوليلي بقى ماما فين؟!

حينها كان قد وصل يونس لهم فقالت فريدة بشغف الأطفال وعفويتهم:

_بصي يا ميس ده خالو يونس اللي حكتلك عنه أنه شبهك أوي.

قال يونس بابتسامة واستغراب:

_حضرتك ميس تسبيح بتهيأ لي أحنا اتقابلنا في الكافية من أسبوع كده.. صدفة سعيدة!

قُلت بحرج بعدما تذكرته بصعوبة نظرًا لارتدائه نظارة شمسية في ذلك اليوم:

_أه افتكرت حضرتك.. شكرًا على القهوة مع أني قولتلك إني هكلم حد من البيت يجبلي الفلوس.. ومكنتش أحب أن حد يدفعلي!

قال متأسفًا بنبرة هادئة:

_أنا آسف لو ضايقتك مكنش قصدي بجد!

أشحت بنظري بعيدًا وقُلت على مضض:

_لا عادي خلاص حصل خير.

قال بملامح جدية:

_أيوا يعني فين تمن القهوة مش هترجعيه؟!

للحظة واحدة ظننته يطلب ثمنها بنفسه وهو الذي لا يظهر عليه أي علامات للوقاحة وقلة الذوق يبدو كرجل به وقارٌ وحُسن أخلاق في التعامل.. كُنت سأرد ثمنها قبل أن يطلب لكن بعد أن كادت تظهر على ملامحي الدهشة كان قد ألحق بحديثه ضحكة تُعبر على عدم جدية ما قاله وبأنه كان من باب المزاح فقط.

ثم أردف سريعًا بمرح:

_بهزر والله بهزر..

ثم أكمل بصوت لين:

_ده كفاية أن فريدة بتحبك بالشكل ده، كده واجب عليا أدفعلك تمن القهوة كل يوم..

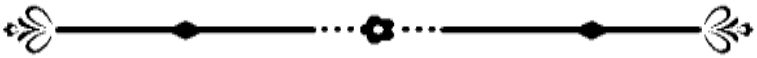

• شعرت بشيء من التوتر والخجل لا أعلم سببه، لكن كانت هناك طاقة غريبة في حديثه ربما حضور وهيبة مع خفة دم وأسلوب مرح..

فشعرت برغبة بالانصراف سريعًا قبل أن أحاول بإنهاء الحديث والمغادرة

قالت فريدة:

_قهوة لي يا خالو مش فاهمة..

قبل أن يرُد قُلت بامتنان:

_طيب أنا مضطرة أمشي، وعالعموم اتشرفت بحضرتك وشكرًا تاني على القهوة..

قال بابتسامة:

_الشرف ليا.. العفو.

ودعت فريدة بقُبلة على جبهتها وغادرت..

.....

•عاد يونس وفريدة إلى هند يضحكان سويًا ويأكلان الحلوى معًا..

بعدما جلسا قالت فريدة بعفوية:

_تعرفي يا ماما قابلنا مين دلوقت؟!

قالت هند باهتمام:

مين يا ست فريدة!!

ردت فريدة بسرعة:

_ميس تسبيح.

قالت هند باستغراب:

_إيه ده بجد صدفة غريبة!

قال يونس بابتسامة:

_هي فعلاً صدفة غريبة لأنها مش الصدفة الأولى.

قالت هند بعدم فهم:

_يعني إيه مش فاهمة؟!

حكى لها يونس عن مقابلته الأولى مع تسبيح في ذلك اليوم الذي صممت فيه فريدة أن يوصلها لدار التحفيظ، فخرج لشراء القهوة من الكافية المقابل للدار وقابل تسبيح.

قالت هند:

_يااااه دي فعلاً صدفة غريبة أوي!

قالت فريدة ببراءة:

_بس شوفت بقى يا خالو ميس تسبيح عسولة إزاي!

قالت هند بضحكة وهي تغمز بعينها ليونس:

_ها يا سُنسن رُد شوفت ولا مشوفتش؟!

ضحك يونس من طريقة هند وقال محاولاً صرف تفكيرها:

_تاخدي شيكولاتة؟!

.....

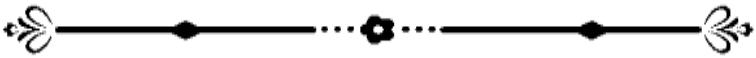

• يُمكن للإنسان أن يتغير مساره بعد لقاء واحد، ألا يعرف كيف له أن يتمالك نفسه أو يتحكم بتفكيره وقراراته..

هو لقاء ليس كبقية اللقاءات.. أعذبهم وأقربهم، فيه يتفق شيئان نادرًا إن اتفقا..

يتفق العقل والقلب في آنٍ واحد!

•لم يشعر يونس بنفسه إلا وهو يتجه بكل مشاعره وتفكيره نحو تسبيح يومًا بعد يوم، ظنّ في البداية أنّها مجرد أفكار عابرة من كثرة حديث فريدة وهند عنها، لكن حينما فوجئ بنفسه يخلق حججًا كل يوم ليذهب بدلاً عن هند إلى الدار ليوصل فريدة.. متطلعًا ومتشوقًا لرؤية تسبيح وخلق أي حديث معها من جديد، لا يعرف لمَ يشعر بحاجة لذلك؟

هنا فقط بدأ يعرف أنه منجذب لها بقوة لا مجرد إعجاب سطحي.

ظل يتردد على الدار مع فريدة مرة صباحًا لتوصيلها إلى الدار أو بعد الانتهاء من حلقتها مع تسبيح..

مرة يراها وأخرى لا.. مرة يسعفه رصيده من الفرص معها فيخلق الحجج لفتح الحديث معها عن فريدة وإتقان حفظها ومستواها ومرة أخرى لا تسعفه فُرصة فلا يعرف عنها أي شيء..

أكانت تتعمد تسبيح ألا يراها لسبب ما!

حينما تحقق من إحساسه نحوها وزاد يقينه من كونها كمثل مَنْ أرادها زوجة له مُنذ سنين، حينما لم يعد الأمر مجرد إحساس إنما تعلُق شديد بها وبرؤيتها يجعل يومه مختلفًا ويخلق داخله شغفًا وحُبًا للحياة..

حينما أصبح حديث فريدة عنها شيئًا من اهتماماته القوية ورغبته الجلية في المعرفة عنها أكثر وأكثر..

كان قد عزم أمر الوصل الحلال بها..

.....

{فَاصبِر عَلى ما يَقولونَ وَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وَقَبلَ غُروبِها وَمِن آناءِ اللَّيلِ فَسَبِّح وَأَطرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرضى}

•عادة تعودت عليها منذ سنين..

أنا أقف بعد الفجر وقبيل المغرب أنظر إلى السماء أضع يدي على قلبي، أقول يا رب اهدِ قلبي فإنه دون هُداك تائه الخطوات، واسكب فيه طمأنينة لا يقلق بعدها أبدًا.. يا رب هاربة إليك أستغيث بك من كل سوء مسني.. يا رب نجني برحمتك وأزل عني مخاوفي..

كان لاسمي نصيب كبير "تسبيح".. فكان لذكر الله والتسبيح أثر بالغ في سكينة روحي وأمانها

قطع تأملي للسماء رنة هاتفي فإذا بها هند والدة فريدة..

ابتسمت وقُلت بترحاب:

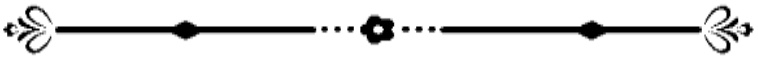

_السلام عليكم.. إزيك يا مدام هند عاملة إيه؟!

جاءني صوتها بتودد:

_وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته.. الحمد لله يا ميس تسبيح أنتِ عاملة إيه؟!

قُلت بصوت مرح:

_ الحمد لله بخير والأروبة بتاعتنا أخبارها إيه؟!

قالت باختصار:

_بخير الحمد لله..

قُلت بثقة:

_طيب الحمد لله وأنا ببشرك متقلقيش مستواها في الحفظ جميل جدًا وبيتطور..

جاءني صوتها تقول:

_طيب كويس.. بس أنا مكنتش متصلة بيكِ المرادي علشان أسألك على مستوى فريدة بصراحة في موضوع تاني كنت عايزة أكلمك فيه!

قُلت بتوتر:

_خير يا حبيبتي اتفضلي!

ردت بهدوء:

_لا الأفضل نتقابل حاسة إني عايزة أشوفك علشان أعرف أتكلم!

قُلت بفضول وحيرة:

_خلاص مفيش مشكلة أقابلك بكرة في النادي!

قالت بتأكيد:

_تمام اتفقنا!

• كذلك انتهت المكالمة وظلّ بالي مشغولًا من رغبة هند بمقابلتي..

حتى أتى موعد المقابلة وما قالته هند لم يكن في الحسبان نهائيًا حينما صرحت برغبة يونس بخطبتي.. حكت لي عنه كل شيء بالتفصيل عن حياته وعمله وسفره، ولم تُعطني فرصة لأقطع حديثها مُعلنة عن أنه لن يقبل بفتاة أكبر منه سنًا.

كان شعوري حينها مختلطًا ما بين توتر وحيرة ومائة تساؤل أولهم لماذا أنا؟

قُلت لها بتردد ممزوج بتوتر:

_أحب أنبه حضرتك لكوني أكبر من البشمهندس يونس!

قالت بتساؤل:

_ليه يا تسبيح مش أنتِ أربعة وتلاتين سنة صح؟!

قُلت بحرج محاولة إخفاءه:

_مظبوط.

بابتسامة قالت:

_طيب معلش منا اللي نسيت بعد كل الكلام ده عنه أقولك سِنّه.. يونس عنده خمسة وتلاتين سنة يعني أكبر منك بسنة.

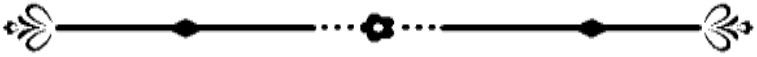

• زادت التساؤلات في عقلي..

ولمَ شاب بكل هذه المواصفات الاجتماعية والثقافية والمادية أن يُعرِض عن الزواج حتى ذلك العمر؟

أم سبق له تجربة زواج قبل ذلك ولم تنجح!

أم هو بالفعل متزوج! وتلك مصيبة أكبر!

أما التساؤل المضحك في عقلي كان عن كيف له ألا يظهر عليه سِنهُ بهذا الشكل لدرجة أني ظننته أصغر مني عمرًا، من يراه يظن أنه في منتصف العشرين.

فأمليتُ عليها واحدًا من تساؤلاتي!

فقُلت لها منتظرة أن ترمي ردًا مثابة قنبلة مما أعرفهم جيدًا، لكنها من جديد فاجأتني فقالت:

_لا يونس أخويا متجوزش قبل كده.

فقُلت لها بآخر ما بقي لي من ثبات:

_طب ممكن أعرف هو لي متجوزش لحد العمر ده؟

قالت بابتسامة هادئة:

_لا ده بقى تعرفيه بنفسك منه لما تبقوا في الرؤية الشرعية، يونس عنده أفكار كتير شبه أفكارك وعقلك يا تسبيح ولولا أني عارفة بجد أنكم لايقين على بعض مكنتش هتكلم..

أنا حقيقي ما صدقت أنه جه وقالي بعد العمر ده وكل المحايلات دي عليه علشان يتجوز أن أخيرًا انجذب لبنت وعايز يخطبها..

مش مصدقة بجد بس اللي متأكدة منه إن اللي خلاه ميتجوزش لحد دلوقت هي نفس الأفكار والمبادئ اللي عندك واللي خلتك تصبري لحد دلوقت.. يونس مش راجل عادي عايز يتجوز أي واحدة والسلام، يونس عايز زوجة تكون قد كلمة زوجة وكلمة أم وهو حاسس أنه هيلاقي ده فيكي وأنا طمنته أن إحساسه في محله..

.....

• الغريب أني انتظرت من نفسي أن أفرح بما عرضته عليّ هند.. لكن كان القلق هو الشعور الطاغي كفتاة مثلي قد مرت بكل ما مرت به واعتادت الأمر وقد زال عنها إحساس الانتظار، لن يضرها إن ظلت على وضعها، فقد تأقلمت لكن خوفها من خوض تلك التجربة بعد كل هذا العمر على أمل أن يكون هذا هو عوضها ولا تجد ذلك كان هو الإحساس الأبشع!

فكرت في الرفض لكن لم أكن لأجرؤ على ذلك رغم خوفي كُنت أشعر بأنّ الأمان سيطرق بابي هذه المرة، بأنّ دعائي لم يُرد وبأنّ قلبي سيُجبر!

فوافقت وأنا أمضي في سبيل تحقيق الأخذ بالأسباب..

وأتى يونس للرؤية الشرعية ذلك اليوم الذي بدأت فيه حياتي لتأخذ المسار الآمن لأجد ملاذي من متاعب الحياة لأعرف لطريق الحب سبيلاً..

لم أكن أعرف لتعريف الانبهار معنى حتى جلس أمامي بهيبته المعتادة وتحدث..

حكيم في حديثه، موفق جدًا في اختيار كلماته ومصطلحاته، لبق في أسلوبه.. مثقف ومُطلع جيد يُحب الشعر والقراءة.. ملتزم بتعاليم دينه، حافظ لكتاب الله، على قدرٍ عالٍ من النُضج والوعي الثقافي والعلمي.. والوعي بمسؤوليات الزواج وتكوين الأسرة..

طموح جدًا في عمله، شخص منظم ومستقل ماديًا..

كنت بالفعل عرفت كل ذلك من هند أو أثناء حديثه الأول معي.. لكن ما زاد احترامي له وميولي له هو إجابته التي أجابها لي..

عندما بادرت بسؤال قائلة:

_ تفتكر يا بشمنهدش الجواز محتاج إيه علشان ميبقاش زي مابنشوف دلوقت في معظم الجوازات..علطول خلافات وخناقات ومشاكل مبتنتهيش؟ رغم أن بيكون بين الطرفين حُب كبير أوي من قبل الجواز فأزاي الحب ده مبيساعدش على حل الأزمات دي؟

ليه دايمًا قرار الطلاق بقى هو الحل وأسرع حاجة بيلجؤوا ليها؟!

ابتسم قائلاً:

_ سؤال جميل أوي.. تعرفي إن مش بس الإجابة على الأسئلة هي اللي بتحتاج ذكاء لكن طرح السؤال اللي جواه مغزى مهم بيحدد مدى عقلانية ونُضج

الشخص اللي بيسأل.. رغم إني عارف إنك مش بتسأليه من فراغ أكيد عايزة تستنتجي حاجة معينة؟!

ثمّ ضحك مضيقًا لعينيه وأضاف بمرح:

_وأنا هعمل مش واخد بالي..

ضحكت لكونه يعرف ما يدور بعقلي وقُلت:

_لا أبدًا حقيقي لكن حابة يكون في بينا نقاش يسهل لينا معرفة بعض أكتر ومعرفة مدى تأقلم تفكيرنا وتقراب أهدافنا.

ابتسم وقال بثقة:

_ولا يهمك ده حقك طبعًا أنا عامةً بحب جدًا النقاشات الهادفة..

ثم أكمل بهدوء:

_بصي يا تسبيح الحُب لوحده مش كفاية للجواز، الحُب لوحده مش هيقدر يخلي الست تعيش نفس الروتين كل يوم في البيت ما بين طبخ وغسيل وتنضيف ورعاية أولاد وغيره بدون مقابل لمجرد وجود الحُب بس..

ولا يقدر يهون عليها انشغال جوزها بالشغل عنها أحيانًا بدون مقابل لمجرد الحُب بس..

ولا يقدر يخليها تستحمل تقوم لو هي تعبانة تقف في المطبخ وتشتغل أو تستحمل أي ضغوطات مادية في البيت مع الراجل ده لمجرد أنها بتحبه وبس..

ولا يقدر يخليها تقف جمبه وتساعده وتدعمه في أي أزمة لمجرد وجود الحُب وبس..

وكذلك الحُب وجوده مش شيء كافي علشان يخلي الراجل يتعب ويشتغل طول النهار ويروح مهدود كل يوم لمدة شهر وفي الآخر يقبض مرتبه يصرفه في يومين على وصل كهربا وماية ومصاريف مدارس للأولاد ومستلزمات البيت.. بدون مقابل آخر غير الحُب وبس!!

ولا الحُب لوحده كافي يخلي الراجل يستحمل هرمونات الست اللي متجوزها وتقبل تقلبات مزاجها وعصبيتها الغير مبرره..

ولا الحب شيء بيزين الست في عين جوزها حتى وهي مهملة في نفسها أحيانًا بسبب ضغط شغل البيت ورعاية الأطفال!

ولا برضو الحُب ضمان لبقاء الراجل يحب الست دي لوحدها بدون ما يفكر في أي لحظة أنه يخونها أو يفكر في أي ست تانية غيرها..

لأن كتير بنشوف راجل بيحب مراته جدًا وفي الآخر يروح يشوف غيرها عادي بمنتهى الحماس..

ولا الحب كفيل يخلي الراجل يحترم الست اللي معاه ويقدرها ولا تهون عليه ولا يهينها في أي يوم ولا يكسر قلبها..

الحُب عمره ما كان كفاية لدوام العلاقات وسلامتها يا تسبيح.. إنما اللي ذكره ربنا بين الزوجين كان أعمق وأسلم، قال: المودة والرحمة..

المودة اللي هتكون في قلب الزوجة تجاه زوجها تخليها تستحمل معاه وعلشانه أي حاجة..

والرحمة اللي هتكون في قلب الزوج تجاه زوجته في معاملته ليها ورحمته بضعفها اللي ميزها بيه ربنا ومكنش عمره عيب فيها..

الحُب ده نسبة بتزيد وبتقل مع الوقت والأحداث والعمر.. لكن المودة والرحمة لو اتوجدت بين زوجين عمرها ما تقل وعمر ما أي أحداث تأثر فيها، لما بيفهموها ويطبقوها حتى لو حصل انفصال لأي سبب هيفضل بينهم احترام وتقدير يغنيهم عن كل المشاكل اللي بتحصل في المجتمع حاليًا..

هل كُل اللي حصل ما بينهم مشاكل كبيرة وخلافات كارثية مكنش بينهم حُب في يوم من الأيام أكيد لأ كان فيه لكن قل أو اختفى مع روتين الحياة وأحداثها الصعبة، الطبيعي أن أي علاقة هيحصل فيها خناقات وخلافات مفيش علاقة خالية من ده.. لكن لما بيكون في مودة ورحمة هتحافظ على الست من قوة الراجل اللي ممكن يطغى عليها وتحافظ على كرامة الراجل اللي من السهل تجرحها الست..

هيكون مرجعهم الأساسي علمهم بدينهم ومعرفتهم بالله اللي تخلي الراجل يعرف إن الست خُلقت من ضلعه ووصاه عليها الرسول، وتخلي الست تفهم إن طاعة زوجها وتقديره واحترامه أمر من ربنا ليها..

عرفتي إن الحب لوحده مش كافي ومش ضامن.. وإن روتين الحياة وضغطها قادر ينهي على أي حب مهما كانت قوته.

المودة والرحمة والتفاهم والتسامح حاجات أساسية والحُب مُكمل ليها زي النكهة اللي بنحطها على الأكلة تخلي ليها طعم مميز لكن المكونات الأساسية هي الأهم فيها..

•قد رُسمت ابتسامة عذبة على ثغري نتيجة إعجابي الشديد لحديثه ولم يكن بمقدوري إخفاء ذلك..

كانت تلك هي المرة الأولى التي أنال فيها الجلوس أمام شخص يستحق أن أجلس معه وأوليه اهتمامي وإعجابي، من بين كل مَنْ رغبوا في الزواج مني..

كان في كل مرة يُبهرني بحديثه المختلف حول فِكره تجاه الزواج والعلاقات الأسرية أو تربية الأطفال ودور الزوج فيها، أو عن مواضيع مختلفة عن القراءة والكُتب وأهمية ذلك في تطور نُضجه ووعيه على الصعيد الديني والعلمي والثقافي، فأصبح يزيدُ من ثقافتي ومعرفتي..

يشاركني أهدافه ومخططاته ومشاريعه..

وأحيانًا يُملي عليّ أبياتًا من قصائد للمتنبي، يُطرب بها أذني بصوته الذي أصبح مميزًا على مسمعي وقلبي!

يروي لي قصصًا دينية أو تراثية ونتناقش حولها ونتبادل الأفكار..

كما لم يخلُ حديثه من المزاح.. كان يمتلك خفة ظلّ، وسامة في روحهِ قبل وجهه..

لكنّ القلق لم يسمح لي في أن أهنا أبدًا، كانت الشكوك تساورني حول ما إن كان هذا الشخص بارعًا في الحديث فقط مثل غيره ولا يفعل ما يقول..

بعد لقائي به ذلك اليوم وقد كان رابع لقاء لنا في بيتي كرؤية شرعية، صليت استخارة..

كان القبول على تلك الخطوة أتردد فيه وحدي فقد كان حسم الأمر هو من خلاله وأنتظر موافقتي، لكنّني صممت على أن تتعدد المقابلات والزيارات له لنتعارف أكثر قبل أن أوافق ونُعلن خطبتنا..

كان تفكيري تجاه عدم زواجه لذلك العمر سبب آخر للقلق..

رغم أنه لم يُفكر بي كذلك أبدًا..

فقال لي عندما بادرته بسؤالي:

_وإيه السبب اللي خلاك متجوزتش لحد دلوقت؟!

تنفس ببطء وقال:

_بصي أنا خطبت مرة واحدة قبل كده، وقتها كان عندي ٢٧ سنة.

اتخطبنا سنة حاولت فيها أتأقلم معاها بأي شكل لأني وقتها كنت بحبها، لكن الاختلافات بينا في التفكير والأهداف كانت فرق شاسع أوي..

قُلت متسائلة بحذر أكثر:

_يعني إيه ممكن أفهم أكتر؟!

اعتدل في جلسته بعدم ارتياح وقال:

_أنا هحاول ألخصلك التجربة..

القليل من التفاهة والسذاجة ممتع لكن المزيد منها مُهلك!

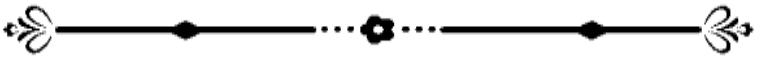

السطحية في التفكير والتصرفات كانت هتتعبني أنا يا تسبيح حاولت كتير أستحمل وأعديها لكن لقيت أني لو استحملت شهر ولا سنة مش هقدر أكمل عمُر وحياة عايز أعيشها صح وبيها يكون في تأسيس لبيت مبني على التقارب الفكري وفيه تفاهم..

كنت محتاج أكتر لواحدة فاهمة يعني إيه بيت وأسرة وأطفال واحدة فاهمة إزاي تكون زوجة وأم..

حصل بينا مواقف كتير أكدت ليا إن مش هي دي اللي تناسبني ولما اتأكدت محبتش أجازف لأني بسعى لعلاقة فيها استقرار وبس..

قُلت بفضول:

_طيب ولما سبتها مخطبتش تاني لي؟!

قال بضيق:

_لأني للأسف اكتشفت إن في بنات كتير زيها وأني في كل مرة بحاول فيها بلاقي نسخة منها في بنت جديدة وأني كنت بدأت أيأس من إني ألاقي اللي تناسبني..

صمت لثوانٍ، ثمّ أضاف بملامح لينة وبابتسامة مُربكة:

_لحد ما شوفتك وعرفتك..

ثم أردف:

_وقتها اتأكدت إني لقيت اللي كنت بدور عليها، لقيت البنت المناسبة.. اتأكدت إني صبري على الخطوة دي لحد ما ألاقي اللي أطمن ليها بالشكل ده

كان صح.. والأهم أني اتأكدت إني محبتش قبل كده وأن لسه الحب الحقيقي هيزور قلبي..

• زادت نبضات قلبي مُعلنة أني بالفعل قد وقعت في شباك حُبه لا محالة من هروبي ولا مزيد من القلق..

ثمّ أكمل ليمحو أي قلق كان قد سكن عقلي وقلبي من قبل، ليمحو أي لحظات من التردد مرت عليّ، وليخفي أي أثر لشتاتي على مر سنين..

قال بابتسامة عذبة:

_تسبيح أنا أول مرة أطمن كده وأكون متحمس بالشكل ده ومُقبل على الخطوة دي بإصرار ومتمسك بحد كده، لكن مش عارف المفروض أعمل إيه علشان أطمنك وأخليكي توافقي وتبطلي تردد بقى!

قُلت بعد أن تركت نفسي لأول مرة لأخوض التجربة وأنا مُفلتة لكل حبال القلق..

قُلت بتوتر:

_أعمل كل اللي أنت قولت عليه وبس..

كل اللي شوفته فيك الأيام اللي فاتت واللي قولته يكون حقيقي يكون على أرض الواقع.. ألتمسه بنفسي، أنا مش عايزة غير كده.

أنا موافقة لكن خايفة!

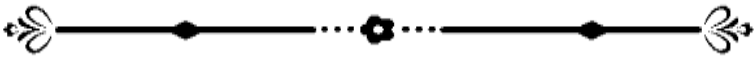

قال بملامح ونبرة لينة:

_مش هينفع أكون أنا والخوف متواجدين في حياتك مع بعض، وبما أنك أخيرًا وافقتي واخترتيني يبقى أنا لازم أعمل كل اللي أقدر عليه علشان ميبقاش للخوف مكان في قلبك من تاني!

•بعد أسبوع أعلنا خطبتنا وارتديت خاتمًا ذهبيًا نُقش عليه من الداخل اسمهُ..

أعطاني الله ما أردت بل وأكثر.. أعطاني ما رغبت وطمحت له ذات يوم.. نولني الله مُرادي بأحنّ شكل وبأعظم مما تخيلت، عوضني الله عن صبري وشتاتي، عوضني عن كل يوم تأنيت فيه عن سوء الاختيار..

سُحِقت نظرات الشامتين لي حينما بلّغني الله عوض لم أكن أتخيل أن أُعوض به..

سمعت أقاويل عدة بأُذني تقول بحقد:

كيف مَنَّ الله عليها هكذا؟!

يا تُرى ماذا فعلت لتحظى بزوج مثل هذا؟!

لكن ما عشته مع يونس كان أعظم بكثير مما رأوه في الظاهر، كان ما هو في الباطن أجمل بكثير.. لكن كان ظاهر وباطن يونس يوحي بأن فضل الله لي كان كبيرًا..

حتى بعد أن صبرت سنين وتحملت من أذى ألسنتهم ما لا تتحمله إحداهن عدن يتسألن ويتعجبن مما رزقني به الله ويتحسرن حظوظهن.. عجيب أمر تفكير البعض!

•دامت خطبتي ليونس ستة أشهر..

عرفت بهم معنى أن جبر الله إذا تأخر لا يأتي عاديًا أبدًا.. ستة أشهر كانوا لتعارفنا أكثر وإتمام تجهيزات الزواج..

خضع فيهم لضوابط الخطبة كما اتفقت معه أثناء الرؤية الشرعية، وقد رحب جدًا بذلك وعاهدني حينها وقد كان رَجُلًا في عهده لي فلم يتجاوز يومًا أبدًا..

ثم عقدنا القرآن حينها أصبح زوجي الذي أردته وحلمت به أن يكون.. حينها فقط تركت حُبه بأن يغزو قلبي..

أمسك بيدي ناظرًا لعيني وقال:

بعض العيون كحد النصل تقتلنا

أين المفر وهذا الحُسن سبحان!

حينها ابتسمت بخجل وصرفت عيني عنه..

فأراد أن يحمل عني هذا الخجل

فأكمل مازحًا:

_أيوا برضو قوليلي أنا هاخد تمن القهوة أمتى؟!

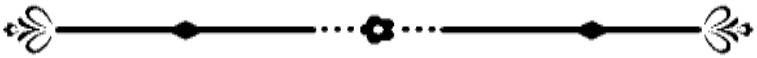

فضحكنًا معًا

وقُلت له بابتسامة مَرِحة:

_مش هديهالك.. هبقى أعملك بتمنها قهوة غيرها في بيتنا!

وعندما أتينا لأمر الزفاف، أتى يونس لي يعرض عليّ فكرة كانت قد علقت قلبي به أكثر وأكدت لي سلامة اختياري..

حينما قد توافقنا في إرادتنا بأن نذهب لأداء العُمرة بدلاً من الزفاف، لكنّه أصر على أن أحظى بفرحة ارتداء الفستان الأبيض..

وبالفعل تم ذلك، عندما ارتديت ذلك الفستان التي تمنت أمي أن أرتديه منذ زمن..

وعندما رأتني به قالت لي بابتسامة وعيون دامعة:

_فرحانة بيكِ أوي يا تسبيح.. مش مصدقة عينيا أني أخيرًا شوفتك بالفستان الأبيض وهطمن عليكِ.. كان عندك حق يا حبيبتي صبرك كان على حق والله، يونس راجل يستحقك وعوض ليكي أفضل من اللي اتمنيته ليكِ بكتير.. الله يفرح قلبك.

احتضنتها بحُب وقلت:

_ الحمد لله يا ماما الحمد لله.

أتى يونس ليأخذني من بيتي لنذهب لجلسة التصوير..
كان يومًا خفيفًا ولطيفًا على القلب بكل تفاصيله، كان يونس ودودًا مُحبًا لي بكل الطُرق وبكل الأساليب.. لمست به في تلك الفترة محاولاته الشديدة لبث الأمان والاطمئنان لقلبي، يحاول بشتى الطرق جعلي سعيدة..

•انتهينا من جلسة التصوير، ثمّ ذهبنا لبيتنا الذي نرغب أن نجعله بيتًا مسلمًا سويًا وصالحًا..
• أنا من حصلت عليه كزوج وسكن وبيت آمن قبل أن أحصل على بيت من جدران، حصلت على بيت على هيئة إنسان جميل القلب والقالب..
•وبعد أسبوع من زفافنا استعددنا للسفر لأداء العمرة فتوجهنا للمطار قبل ميعاد الطائرة بساعة كنا قد وصلنا..
يدي بيده ورأسي على كتفه بجانبه في الطائرة أنظر من النافذة إلى السحاب إلى أن غفوت، استيقظت على صوته يُبلغني أننا قد وصلنا الأراضي السعودية.. خطوت بقدمي على الأرض التي لطالما تمنيت زيارتها لكن لم يخطر ببالي أن أخطوها بجانبه هو..
اعتمرنا معًا.. حمدت الله للمرة التي لم أذكر كم هي.. حمدت الله على جميل عوضه ورحمته ورأفته بقلبي.. دعوت الله بالذرية الصالحة..
فبواسع كرمه من جديد مَنَّ عليّ بابنة سميناها "أرين".

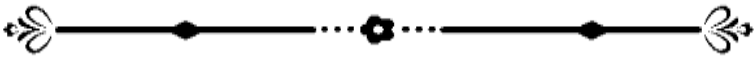

ومع مرور سبعة أعوام لم ألمس فيهن إلا المودة والرحمة من يونس، رأيت فيهن معنى الوفاء والحُب والإخلاص والتقدير..

لم أجد به خصلة واحدة تجعلني أنفر منه يومًا واحدًا، لم يبخل عليّ بمشاعره أو بماله..

كان صادقًا في كل ما وعدني به من قبل.. علمت في تلك الأعوام جيدًا معنى "أن عوض الله إذا أتى يُنسي الإنسان كل سنين الانتظار الموحشة.. يطيّب كل الجروح الغائرة، يشفي كل الندوب"

لم تصفُ حياتنا من الخلافات الطبيعية بين أي زوجين، لكن الأهم أنه لم يهُن عليه حُزني يومًا، لم تمر عليّ ليلة دون حديث بيننا.. كان كل شيء يهون علينا إلا أن يحمل الآخر في قلبه عتاباً ثقيلًا مكتومًا.

•أنا تسبيح..

الوعي قصتي.. كان سببًا في قص جناحي عشر سنين، ثمّ وهبني الحرية عمرًا كاملًا.

الآن أقولها بملء قلبي:

«من تأنَّ نال ما تمنى»

و«من صبر ظفر»

****

ملاحظة مجتمعية.. "الأخيرة"

الزواج..

ومفاهيمه المتعددة لدى الناس، لكل إنسان مفهومه الخاص عن فكرة اقترانه بشخص آخر لعقود طويلة من العمر..

وتتعدد القصص المدهشة والمشوقة للأزواج المسنين الذين مروا بالتجربة الواقعية دون التحدث عن بعد؛ الحديث يطول ويختلف من شخص لآخر عما يطويه حدث الزواج وما يليه من أيام يكشف بها الطرفان، لكن الأكيد أن الجميع اكتفى من الأحاديث المعقدة عنه، كل يوم يُسرد لنا عن بشاعته وعن كونه فخًا عظيمًا.. حتى نشأ جيل لا يعرف عن الزواج سوى سلبياته ومشكلاته وتفاصيل قصص الطلاق والانفصال والقضايا الأسرية..

ثم ما إن تلبث أن تظهر قصة زواج ناجحة كل طرف فيها يعرف واجباته وحقوقه ويتعامل بأساسها - وهذا الطبيعي - يقف الجميع في ذهول وإعجاب...

أعرف أنّ هذا يستدعي الانتباه ولكن ما الغريب في زوجين يعرفان أساسيات الزواج الناجح، ما الغريب في زوجين يدركان عظمة هذا الميثاق الغليظ وهذا الارتباط الشرعي الذي رُبِط بكلام الله أولاً، ما الغريب في أمر طبيعي كهذا، ولكن مع جهل الكثير من الأناس عن الزواج

وأساسياته ومسؤولياته ظنّ البعض أنّه مجرد تجربة صلحت كان بها فسدت نقول يا للحظ هيا بنا لننفصل تاركين خلفنا جراحًا مزقت قلب الطرفين من الداخل ويا للبأس إن تُرِك خلف تلك التجربة طفلاً بريئًا يتجرع مرارة جهل ذلك الزوجين طوال عمره؛ سنوات وسنوات من الأجيال تمر ويتم بها دهس قيمة الزواج الأصلية والمبدأ الحقيقي منه وكيفية نجاحه ومعرفة مسؤولياته، ويتم فرض مبدأ الزواج بالسن بدلاً عن الزواج بالتأهيل..

وفي ذلك معنى أنّ الزواج أصبح لمن وصل سن الزواج الطبيعي وليس لمن أصبح مؤهلًا للزواج أم لا!

لا أحد يسعى وراء المعرفة والعلم الشرعي والدنيوي من غرض الزواج وكيفية بناء بيت أسريّ سليم وصالح...

إنما الطاغي الآن هو "كم عمرك وماذا لديك من مؤهلات مادية تجعلك مناسبًا للزواج!"

اختفت شروط الزواج الأساسية وتم تبديلها بأخرى تجعل من الزواج ألعوبة، بين النجاح -بالمصادفة - والفشل المتوقع..

الآن أصبحت الفتاة في سن الزواج همها الأول والأخير الاعتناء بمظهرها الخارجي فقط تراها تبحث عن منتج للأظافر وآخر للبشرة والشعر و... و... هذا لا شك من الجميل والرقيق عن طبيعة الفتاة، ولكن عندما يصبح هذا هو فكرها الأول والأخير فقط دون الاعتناء بفكرها عن التأهيل

لخطوة الزواج والتأهيل المعرفي عن مسؤوليات الزواج وتربية الأطفال والعناية ببيت وزوج وطفل دون إنقاص كفة عن كفة أخرى... هذه هي المشكلة!

ترى الشاب أيضًا في تلك المدة كله ما يهمه هو العضلات السداسية وتمرينات "الجيم"، ثمّ أيضًا يسعى لإتمام دراسته والعمل وكسب المال هذا كله – بالتأكيد – مهم... ولكن أين تأهيلك للزواج؟

أين للفتيات والشباب من الاطلاع على الدورات والكتب التي تؤهل المقبلين على الزواج...

من هنا تبدأ مشكلة قد تكون من أعظم مشكلات هذا الجيل ويتخلف عنها جروح غائرة في روح الطرفين، لأنّ لا هذا عرف واجباته ولا هذا عرف حقوقه ولا أحد أتم ما عليه إتمامه..

لا الرجل عرف كيفية التعامل مع نفسية المرأة المتقلبة ومراعاة "هرموناتها المزعجة" وتهدئة قلبها الخائف دائمًا على الشيء واللا شيء، ولم يفقه أنّ كل ما تقوله المرأة لا تدركه وأنها سريعة الانفعال ولم يفهم كيفية التحكم والسيطرة على أمور الحياة ومسؤولياتها ولا عرف أهم أساسيات القوامة..

ولا الفتاة عرفت كيفية إدارة بيت وتقبل غضب الزوج والصبر على متطلبات الحياة وتقليل النزاع والعناد، لم تفقه شيئًا عن تربية الأطفال تربية سوية سليمة صالحة دينيًا ودنيويًا..

من هنا ينشأ بيت لا يعرف معنى المودة والرحمة والتغافل عن أخطاء الطرف الآخر، والصبر والرضا والحبّ والعطف، ينشأ بيت لا يخلو من صقيع الكراهية أو - على أقل تقدير - لا يخلو من برودة الإحساس والدفء النفسيّ؛ فالتأهيل النفسي والعقلي والبدني والديني مهم كأهمية التأهيل المادي والمظهري..

مدة العزوبية ليست وقتًا ضائعًا بشكل كامل، إنما هي إعداد وتأهيل من جميع الجوانب الحياتية، إعداد للعقل وتطويره لبناء أطفال أسوياء وتأهيل لتأسيس بيت سعيد..

يقول دكتور مصطفى محمود في كتاب من الحب والحياة: "المرعب في فكرة الزواج، ليس أن تتحملي رجلًا بكل سلبياته وإيجابياته طيلة حياتك ولا أن يتحملك هو، المرعب في حجم التردد هو مصير أولئك الأطفال الذين سينتجون عن قرار ابتدأ بمزحة..

هل تستطيعين أن تصنعي منهم رقمًا صعبًا مجتمعيًا؟

أم أنهم سينشؤون في جو روتيني من التلفاز إلى الشارع إلى المدرسة؟

هذا إن لم نصنع مزيدًا من المرضى النفسيين؟

الذي أؤمن به: إن مرحلة العزوبية ليست مرحلة إصلاح الشعر المتقصف، والبشرة المترهلة فقط...

إنما هي أثمن فترة لديكِ لتصنعي عقلاً مختلفًا وشخصية قادرة على إنتاج جيل حيّ نابض بالفلاح..

هي أثمن فرصة لتتعلمي فن صناعة الإنسان وتلملمي شتات شخصيتك وترممي عيوبك كي لا يعيد التاريخ التربية الخطأ نفسها"

هذا ما يجب وضعه في أولى الأولويات للمقبل على الزواج وإن حدث هذا حقًا نكون قد تخلصنا من أعظم مشكلات الزواج وفشله السريع والغريب في الوقت ذاته...

فلا البيوت والعلاقات تقوم وتنجح بملامح زوجة ولا بمال زوج، إنما تُقام وترتقي بزوج وزوجة يعرفان أساسيات ما هما مقبلان على خوضه، تُقام بزوجة هدفها بيتًا يُذكر فيه اسم الله وزوج هدفه ذرية تعبد الله، فيبارك الله في البيت والذرية فينشأ جيل قوي في الدين والدنيا

تم بحمد الله
2024/7/7

****

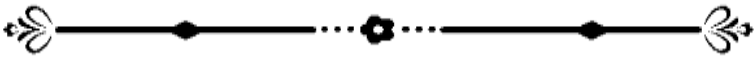

"شُكر خاص"

أدينُ بالفضل لعائلتي..
التي جعلت مني فتاة لا يُكسر لها ضلع ولا يُحَطَّم لها جناح.

****

محتويات الكتاب

إهداء..... 5
المقدمة..... 6
القصة الأولى: «تسبيح»..... 9
القصة الثانية: «سلمى» 32
ملاحظة مجتمعية..... 66
القصة الثالثة.. «رُقية» 73
ملاحظة مجتمعية 2..... 114
القصة الرابعة.. «هناء» 122
ملاحظة مجتمعية 3..... 140
القصة الخامسة.. «ليلى»..... 146
ملاحظة مجتمعية 4..... 178
القصة السادسة.. «وعي تسبيح»..... 185
ملاحظة مجتمعية.. "الأخيرة" 233
"شُكر خاص" 238
محتويات الكتاب 239

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع